المرتكزات الأساسية للعملية التعليمية في مصر في العصر الأيوبي
دراسة تاريخية

المدرس الدكتور مشتاق كاظم المياح
كلية التربية ابن رشد - قسم التاريخ

كان لانتشار المدارس والمؤسسات التعليمية والاجتماعية الاخرى في مصر في العصر الأيوبي، تأثير واضح في زيادة أعداد الطلبة والمشتغلين بالعلم، سواء كانوا من المصريين أو من الطلبة الوافدين عليها من مختلف أرجاء العالم الإسلامي حيث أدى ذلك الى قيام نشاط علمي واسع النطاق كان الفضل الأكبر فيه للجهود التي بذلها القائمون على التعليم الى الحد الذي غدا فيه العلماء والفقهاء احدى الفئات الفعالة في المجتمع المصري حينئذ حيث شاركت في العديد من الأنشطة السياسية والاجتماعية، فضلاً عن تأثيرهم الفعال في الحياة العلمية والثقافية.

وكان الطلبة يتعلمون على أيدي آبائهم في البيوت أو في الكتاتيب، قبل التحاقهم بالمدارس التي كانوا يقبلون عليها في سن مبكرة وكانت أعدادهم تختلف من مدرسة الى أخرى.

أما المناهج الدراسية فكان محورها القرآن والسنة، فيما لم تكن دراسة اللغة العربية والحساب والفلك والطب سوى توضيح وتعزيز العلوم الدينية لدى أفراد المجتمع.

كما اختلفت مصادر تمويل النشاط العلمي، إذ لم يقف عند حدود امكانيات الدولة فحسب بل تدخلت جهات متعددة رفدت ذلك النشاط بالعون المادي كلاً حسب امكانياته.

هيئة التدريس:

١- المدرس:

يطلق اسم المدرس على الشخص الذي يولى تدريس فروع العلوم المختلفة التي جرى العرف بتدريسها في المدارس آنذاك والتي غلبت عليها الدراسات الدينية، كل حسب تخصصه كالفقه والأصول والتفسير والحديث والنحو وغير ذلك.

وبلغ من سمو مكانة التدريس في مصر في ذلك العصر، أن يصدر بها مرسوماً سلطانياً يتم اعلانه باحتفال خاص، حيث يقرأ المرسوم بطريقة علنية في المسجد بعد أن يجتمع الناس على اختلاف مراتبهم، ويتولى خطيب المسجد قراءته(١). وكان أول مرسوم سلطاني صدر بذلك الخصوص، ذلك الذي أصدره السلطان صلاح الدين وفوض بموجبه أمر التدريس بالمدرسة السيوفية للشيخ مجد الدين الجبتي(٢) واستمر ذلك التقليد حتى نهاية الدولة الأيوبية(٣).

لم يكن بالمدرسة بادئ الأمر سوى مدرس واحد، ثم صار يعين عدد من المدرسين لاسيما في المدارس الكبيرة، ففي المدرسة القمحية عيّن صلاح الدين أربعة مدرسين(٤).

أما الملك الصالح أيوب، فقد رتب هو الآخر أربعة مدرسين في المدرسة الصالحية التي تم انشاؤها عام ٦٤١هـ/١٢٤٣م(٥). وكان بعض المدرسين يتولون التدريس في أكثر من معهد تعليمي، فقد تولى الشيخ عماد الدين الجويني مهمة التدريس في كل من مشهد الامام الشافعي-رض- ومشهد الحسين (ع) في الوقت ذاته، فضلاً عن مشيخة الشيوخ وهو اصطلاح يستخدم للدلالة على زعامة خانقاه الصوفية(٦).

كما تولى بعض المدرسين مهام أخرى الى جانب مهمة التدريس، لاسيما منصب القضاء فقد كانت الصلة وثيقة بينهما يحكم اختصاص الأولى بدراسة العلوم الشرعية فيما تنحصر مهمة الثانية بتنفيذ الأحكام الشرعية بين الناس بمقتضياتها، لذا لا غرو أن ينظر سلاطين البيت الأيوبي الى هذين المنصبين بمنظار واحد وأن يجمعوا في كثير من الأحيان بين التدريس والقضاء لشخص واحد، وهو ما حدث للقاضي زين الدين بن بندار حينما قلده الملك الأفضل قضاء مصر الى جانب التدريس، حيث جاء في مرسوم التقليد (ومنصب التدريس كمنصب القضاء يشد من عضده، ويكثر من عدده، فتولى مدرسة الفلانية عالماً، انك قد جمعت سيفين في قراب، وسلكت بابين الى تحصيل الثواب، وركبت أعز مكان وهو تنفيذ الحكم، وجالست خير جليس وهو الكتاب)(٧).

وحين تولى الشيخ عماد الدين بن السكري منصب قاضي القضاة في الديار المصرية، اسند للفقيه محمد بن جماعة بن عساكر القوصي الذي كان يدرس في احدى مدارس الفيوم، مهمة القضاء في المدينة(٨). كما تولى نجم الدين الفتح بن موسى حماد المغربي (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٥م) تدريس المدرسة الفائزية في أسيوط، ثم لم يلبث أن تولى قضاء المدينة(٩). كما فوض السلطان الملك الصالح أيوب، للشيخ عز الدين بن عبد السلام، التدريس في المدرسة الصالحية، كما عهد اليه بعدة مناصب كقضاء مصر والقاهرة والخطابة في الجامع العتيق والإشراف على عمارة المساجد المهجورة وغير ذلك(١٠).

وعرفت مدارس مصر الأيوبية نوعاً من التدريس، وهو التدريس بالموارثة حيث تولى العديد من العلماء والفقهاء مهمة التدريس في عدد من مدارس مصر خلفاً لآبائهم الذين كانوا يتولون تلك المهمة، فقد تولى الفقيه علي بن ثعلب الأنصاري المالكي (ت ٥٩٩هـ/١٢٠١م) التدريس في المدرسة المالكية المجاورة للجامع العتيق في مدينة الفسطاط، بعد وفاة والده الفقيه هبة الله بن ثعلب الانصاري(١١). كما تولى الفقيه والمؤرخ المصري الشهير علي بن ظافر الأزدي (ت ٦١٣هـ /١٢١٦م) التدريس بالمدرسة المالكية في المدرسة المالكية في مدينة الفسطاط خلفاً لوالده الشيخ أبو منصور ظافر بن الحسين المالكي الأزدي الذي كان يتولى التدريس فيها من

قبل(١٢). وبعد وفاة الشيخ صدر الدين علي بن عمر شيخ الشيوخ الجويني، تولى ولده عماد الدين عمر، جميع مناصبه (التدريس بالمدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي-رض- وبمشهد الحسين (عليه السلام) وخانقاه سعيد السعداء)(١٣).

وتولى الفقيه محمد بن عبد الرحمن المنعوت بالشرف، مهمة التدريس في مدرسة منازل العز خلفاً لوالده واستمر على ذلك حتى وفاته عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م(١٤) وأخيراً فقد كان الشيخ عبد الكريم بن عبد الباري الصعيدي الذي انتهت اليه مشيخة الاقراء في مدينة الاسكندرية يتصدر للاقراء في جامعيّ الجيوشي والغزي، ثم اسندت اليه مهمة التدريس في المدرسة السلفية بعد وفاة والده الذي كان مدرساً فيها(١٥).

كما عرفت مدارس مصر في تلك الحقبة نوعاً آخر من التدريس ونعني بذلك التدريس بالنيابة فقد ناب الفقيه نصر بن مقلد الشيزري المنعوت بالمرتضى (ت٥٩٨هـ/١٢٠٠م) بالتدريس في المدرسة القطبية في مدينة القاهرة(١٦). فيما كان الفقيه عبد الوهاب بن يوسف الدمشقي (ت ٥٩٩هـ/١٢٠١م) ينوب عن قاضي القضاة عبد الملك بن عيسى الماراني في التدريس بالمدرسة السيوفية اثناء فترة غيابه عنها(١٧). وغالباً ما تتم تلك الاستنابة من خلال مرسوم يصدر من قبل السلطان لاسيما في المدارس الكبرى(١٨).

أما عن ثقافة المدرسين في المدارس والمساجد فيمكن القول إن الكثير منهم كان يتمتع بثقافة عالية، بحيث ان شهرة الاستاذ ومكانته العلمية انعكست بشكل ايجابي على المدرسة التي كان يتولى التدريس فيها، إذ أصبحت تلك المدارس مقصداً لطلبة العلم من جميع أنحاء مصر، بل ومن خارجها كما الحال بالنسبة للشهاب الطوسي الذي بنى له الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه صاحب حماة وابن اخي صلاح الدين، مدرسة منازل العز، حيث تزاحمت عليه الطلبة من مختلف ديار مصر للأخذ عنه(١٩). وكان الامام الشاطبي متصدراً لإقراء وتدريس القرآن الكريم والنحو في مدرسة القاضي الفاضل في مدينة القاهرة، وطيلة مدة إقامته فيها كانت الطلبة تتزاحم للأخذ عنه، كما رحل الى مصر اعداد أخرى من الطلبة للغرض ذاته(٢٠).

وفي بعض الأحيان كانت شهرة الاستاذ تطغى على شهرة المدرسة فتسمى المدرسة بإسمه، فقد عرفت المدرسة الناصرية التي بناها صلاح الدين بجوار الجامع العتيق بمدينة الفسطاط، بمدرسة ابن زين التجار نسبة لمدرسها الشيخ ابن زين التجار، كما عُرفت بالمدرسة الشريفية بعد تولي الشريف القاضي شمس الدين التدريس فيها(٢١).

ونظراً للمكانة المرموقة التي كان يحظى بها العاملون في مجال التدريس، فقد تطلع البعض ممن لا يصلح لتلك المهمة وتصدروا في بعض المعاهد التعليمية للتدريس فقد وصف القفطي ثقافة أحد معاصريه من الأساتذة الذين تصدروا لتدريس مادة النحو في الجامع الأزهر، بأنها كانت متدنية ولا تعدو كونها إلمامه بطرفٍ من النحو وقليلاً من اللغة، وكان (يقول شعراً متوسط من أشعار النحاة يتوصل به الى قضاء حوائجه وكان ضيّق العطف عسر للاجابة عند السؤال وكنت قد مشيت اليه لطلبَة الافادة، فلم أجد عنده شيئاً فتركته)(٢٢).

٢- المعيد

يأتي المُعيد بالمرتبة الثانية بعد المُدرس وتنحصر مهمته في حضور درس الشيخ أو المدرس فإذا ما انتهى الدرس وانصرف المُدرس من حلقته، تولى المعيد مهمته اعادة الدرس شارحاً للطلبة النقاط المبهمة أو المشاكل التي لم يعالجها الاستاذ. ربما لضيق الوقت أو لاستحياء بعض الطلبة من طلب اعادة الشرح أكثر من مرة وتوضيح ما لم يتضح كي يرسخ في أذهانهم(٢٣).

ولم يكن عمل المعيد مقتصراً على إعادة الدرس الذي ألقاه المدرس فحسب، بل تعداه ليشمل مناقشة آراء الطلبة واختبار مدى فهمهم، فكان يوصي كل واحدٍ منهم بمطالعة الكتب التي تلائم مستواه الفكري، ومن هنا جاء تنبيه السبكي(٢٤) لأهمية دور المُعيد في العملية التعليمية حينما قال: (المُعيد عليه قدر زائد على سماع الدرس من تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه حافظ الاعادة، وإلاّ فهو والفقيه سواء، فما يكون قد شكر الله على وظيفة الاعادة).

ظهرت وظيفة الاعادة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أي مع ظهور المدارس، ولم يرد لها ذكر قبل ذلك

التاريخ(٢٥). ومن المرجح أن يكون التفاوت في مقدرة الطلبة العلمية وراء ظهور تلك الوظيفة لمساعدة الطلبة الضعفاء من مسايرة بقية زملائهم.

ومنذ الأيام الأولى لقيام الدولة الأيوبية كان منصب المعيد أحد أبرز المناصب العلمية المرموقة في مصر، وقلما خلت منه من المدارس التي أنشأت في مصر حينئذ، فقد رتب صلاح الدين مُعيدين في المدرسة الناصرية المجاورة لضريح الأمام الشافعي، الى جانب الشيخ نجم الدين الخبوشاني الذي تولى مهمة التدريس فيها والنظر في أوقافها(٢٦). واستمر ذلك الوضع حتى أواخر العصر الأيوبي، فحينما أنشأ الملك الصالح أيوب، المدرسة الصالحية في القاهرة عام ٦٣٩هـ/١٢٤١م، عيّن أربعة مدرسين للتدريس فيها، كما عيّن لكل واحدٍ منهم معيدان لمساعدته(٢٧). وأحياناً كانت بعض المدارس تخلو من المدرسين ويكتفى بالمعيدين، فقد خلت المدرسة الناصرية من مدرسين مدة ثلاثين عاما، ثم جرى تعيين مدرس واحد بعد ذلك(٢٨).

وكان بعض المدرسين يعمدون الى اختيار المعيد من بين طلبتهم النابهين فقد ذكر الشيخ عبد المؤمن الحافظ في معرض ترجمته لشيخه الحافظ زكي الدين المنذري (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م) بقوله: (هو شيخي ومخرِّجي، أتيته مبتدءاً وفارقته معيداً له في الحديث)(٢٩).

وغالباً ما كان المُعيد يتمتع بثقافة عالية تؤهله الى تأليف أو اختصار المصنفات التي صنفها علماء بارزين، فقد اختصر الشيخ الحسين السبتي القوصي الذي تولى الاعادة في المدرسة النجمية بأسواق، (تفسير الثعلبي) اختصار حسناً، وكان الطلبة في المدرسة يتنافسون للأخذ عنه(٣٠). أما الشيخ شمس الدين الأصفهاني فقد انتصب للافتاء حينما كان معيداً في المدرسة الناصرية، كما تولى شرح كتاب (المحصول) في علم الأصول، وانتفع به أناس كثيرون(٣١) فقد حدث أن استقل بعض المعيدين بالتدريس بعد وفاة المدرس، فبعد وفاة الحافظ أبو الحسن المقدسي الذي كان يتولى التدريس بالمدرسة الصاحبية في مدينة القاهرة، استقل ولده الشيخ أحمد الذي كان يتولى الاعادة فيها، بمهمة التدريس(٣٢).

ويبدو أن مستوى التدريس بالمدرسة كان أعلى منه بالمسجد، ذلك أن العديد من العلماء الذين كانوا يتولون التدريس في المساجد، كانوا في الوقت

ذاته معيدين في المدارس فقد كان الشيخ أبو الثريا الكناني الشافعي متصدراً لتدريس الفقه في الجامع العتيق في الفسطاط ومعيداً بالمدرسة السيفية بالقاهرة(٣٣). كما تولى الشيخ سيف الدين الآمدي الذي كان يتصدر للاقراء في الجامع الظافري، مهمة الاعادة في المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الامام الشافعي (رض)(٣٤).

كما تركت شهرة المدرسة وبروزها على بقية المدارس، آثارها الواضحة على طبيعة عمل المدرس والمعيد على حد سواء فالشيخ نصير الدين بن الطبّاخ كان يتصدر للتدريس في المدرسة القطبية بالقاهرة، وفي الوقت ذاته كان يتولى الاعادة بالمدرسة الصالحية التي كان يتولى التدريس فيها الشيخ عز الدين بن عبد السلام(٣٥).

أما العلاقة بين المُدرس والمُعيد فغالباً ما كانت تتسم بالتعاون والايجابية، ولعل العلاقة الودية التي كانت تجمع بين الفقيه أبو الطاهر المحلي ومعيد درسه في المدرسة الناصرية في الفسطاط، خير شاهد على ذلك، إذ يذكر السبكي أنه ما أن ينتهي المعيد من درسه حتى يُسارع الشيخ المحلي الى تقديم الماء له (تقرباً له وخدمة له)(٣٦).

٣- المفيد:

وفضلاً عن المدرس والمعيد، توجد وظيفة علمية أخرى هي وظيفة (المفيد) التي يحدد السبكي(٣٧) مهمة صاحبها بأن (عليه أن يعتمد ما يحصل به في الدرس فائدة من بحث زائد على بحث الجماعة ونحو ذلك وإلا ضاع لفظ الافادة وخصوصيتها).

وحاول السيوطي(٣٨) حصر نطاق تلك الوظيفة واقتصارها على علوم الحديث حين وصفها بأنها (مرتبة فوق المحدث ودون الحافظ). يبدأ أن ذلك التخصيص لم يكن دقيقاً - فيما يبدو- فالحافظ زكي الدين المنذري(٣٩) يذكر في معرض ترجمته للشيخ عبدالخالق بن صالح القرشي المسكي (ت ٦١٤ هـ/١٢١٨م)، أنه لازم شيخ نحاة مصر وقتذاك عبد الله بن بري (وحصل منه على فوائد وبرع في اللغة وكان مفيد الجماعة) وذلك يعني إن بقية العلوم والاختصاصات كانت قد عرفت تلك الوظيفة العلمية، شأنها في ذلك شأن علوم الحديث رغم قلة انتشارها وندرة المعلومات عنها. علماً أنه

من المهم هنا التنويه الى أن كلمتي (مفيد) و (إفادة) جاءت أحياناً للدلالة على معنى مغاير لمعنى الوظيفة المذكورة، إذ نجد في ترجمة الامام الشاطبي أنه أقام بالمدرسة الفاضلية للاقراء والافادة(٤٠) ويتحدث القفطي(٤١) عن زميل له في الطلب والتحصيل وهو إسماعيل القزاز النحوي (ت٥٨٦هـ/١١٩٠م) الذي تصدر لإقراء القرآن الكريم والعربية في الجامع الأزهر بقوله: (ولم يزل على الافادة والتعلم الى أن مات). أما الحافظ زكي الدين المنذري(٤٢) فقد ذكر أن الشيخ يعقوب بن علي بن يوسف الحكاك بالمارستان العضدي (ت٦٣٣هـ/١٢٣٥م)، زار مصر فكان يعقد مجالسه العلمية بالجامع العتيق بالفسطاط بحضور الحافظ أبي الحسن علي بن المفضل المقدسي (ت٦١١هـ/١٢١٥م) وبافادته. وهو ما يعني بلا ريب أن الكلمة إنما جاءت للدلالة على قدرة المُدرس على افهام الطلب وافادتهم ولا تعني الشخص الذي يتولى تلك الوظيفة.

٤- المؤدِّب:

يطلق على الشخص الذي يتولى تعليم أبناء الطبقات العُليا في المجتمع كالخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء والأغنياء، تسمية المؤدب، وهي بلا شك تعد مظهراً من مظاهر تعاظم الحس الطبقي في التعليم في الدولة العربية الاسلامية، وكان هؤلاء من العلماء البارزين، ذوي الاطلاع الواسع في مختلف جوانب الثقافة الاسلامية وآدابها وكلام الملوك والحكماء وأخبار الأمم السالفة، وهو بذلك يمثلون ذروة المهنة التعليمية ثقافياً واجتماعياً بل وحتى اقتصادياً(٤٣).

فقد نَعِمَ المؤدبون بالرخاء والغنى اللذيَّن تمتعت بهما الفئات التي اتصلوا بها، فكان المؤدب يتقاضى راتباً جارياً من السلطان أو الوزير أو الأمير، فضلاً عن المنزل اللائق والهدايا الجزيلة التي كانت تغدق عليه في مختلف المناسبات. ويكفي للتدليل على المستوى المادي المتميز للمؤدب في مصر في العصر الأيوبي، أن نذكر أن مؤدب أولاد صلاح الدين الأيوبي ويُسمى (الناصح) كانت له داراً مطلة على نهر النيل وهي أحدى مخلفات قصور الفاطميين، أهداها اياه السلطان بعد ان استبد بحكم مصر وأنهى

الخلافة الفاطمية فيها(٤٤). ويذكر العماد الأصفهاني أن الناصح هذا كان في عداد من يحظى بالضيافة السلطانية من فضلاء البلد وأعيانه(٤٥).

وحين استقر الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن وحيه الكلبي (ت٦٣٣هـ /١٢٣٥م) في مصر عقب رحلة طويلة في طلب العلم والحج قادته الى عدد من بلاد المشرق الاسلامي، استدعاه الملك العادل سلطان مصر وفوض إليه تأديب ولده الملك الكامل محمد، فقبل الحافظ تلك المهمة فنال نتيجة لذلك دنياً عريضة(٤٦). بيد أن مصطلح (المؤدب) لم يقتصر للدلالة على مدرس الطبقات المتميزة في المجتمع فحسب، بل شاع استعماله للدلالة على معلمي الصبيان في المكاتب بصورة عامة.

ألقاب المعلمين:

إشتملت الحياة الفكرية الاسلامية عموماً وفي مصر وعلى وجه الخصوص، على مقاييس متعددة لبيان درجة العلم ومكانته في علمه ومدى اجادته له وحجته فيه، تلك هي الألقاب العلمية التي تشبه الى حد كبير الدرجات العلمية العالية التي تُمنح في الوقت الحاضر، بيد أن الاختلاف فيما بينهما يكن في عدم وجود أسس علمية متفق عليها لمنع تلك الألقاب، أي بمعنى أن الألقاب العلمية التي كانت معروفة حينذاك كالإمام والحافظ والفقيه والشيخ الى غير ذلك لم تكن تمنع عن طريق الامتحان وإنما كانت ألقاب تشريف وتقدير لا علاقة لها بالدرجات العلمية، مع أنها كانت دليلاً على المكانة العلمية التي بلغها العالم ولمسها فيه المجتمع والمشتغلون بالدرس والبحث على وجه التحديد(٤٧). فتنطلق شهرته وينتشر ذكره ويلقبه رجال عصره باللقب العلمي الذي يناسبه ويدل على مكانته العلمية.

كما أنه من الصعوبة بمكان وضع حدٍ فاصل بين تلك الألقاب ذلك أن الأئمة والفقهاء والحفاظ والشيوخ تصنيف المصنفات العلمية والتعمق في مجالات اختصاصهم، علماً ان ذلك لا ينفي وجود فوارق في المكانة العلمية التي تدل عليها تلك الألقاب التي غالباً ما تستند الى تقديرات اجتماعية.

١- الامام: هو أسمى ألقاب العلم عامة ويدل على تمكن صاحبه من علمه بحيث يصبح قدوة يقتدي به الناس أو اماماً في ذلك العلم(٤٨). فقد كان الامام أبو الحسن اللخمي الشافعي المعروف بابن الجميزي

(ت٦٤٩هـ/١٢٥١م) أعلى أهل زمانه اسناداً في علم القراءات واليه رئاسة العلم بالديار المصرية(٤٩). وكذا الحال بالنسبة للامام أبو محمد الشاطبي الذي انتهت اليه رئاسة علم القراءات في الديار المصرية(٥٠). فيما كان أبو محمد عبد الله بن بري (ت٥٨٢هـ/١١٨٦م) اماماً في علم النحو(٥١). وأحياناً ما يطلق لقب الامام للدلالة على تمكن صاحبه من اختصاصات علمية عديدة، فمما يعرف عن الامام كمال الدين الضرير (ت٦٦١هـ/١٢٦٣م) شيخ الاقراء في الديار المصرية حينذاك،أنه (كان أحد الأئمة المشاركين في فنون من العلم)(٥٢).

٢- الحافظ : لقب يطلق على كبار علماء الحديث واختص بهم لاحتياجهم الى كثرة الحفظ لمتون الأحاديث وأسماء الرجال وقد اختلف في عدد الأحاديث التي يتعين على المحدث حفظها ليتمتع بذلك اللقب حيث رأى البعض ان الحافظ هو الذي يتمكن من حفظ اربعمائة حديث، فيما رأى آخرون أنه من حفظ عشرة آلاف حديث وكان الامام أحمد بن حنبل –رض- في مقدمة القائلين بهذا الرأي. وقال بعضهم ان من تمكن من حفظ ألف حديث فهو حافظ فيما أحجم آخرون عن تحديد عدد الأحاديث مكتفين بذكر جملة عالية من الاحاديث(٥٣).

ولم يقف مدلول لقب (الحافظ) عند حدود علماء الحديث فحسب، بل امتد ليشمل علماء اللغة وأشار السيوطي الى ذلك المعنى في معرض حديثه عن معرفة آداب اللغوي حيث يقول: (فإذا بلغ الرتبة المطلوبة صار يدعى الحافظ كما ان من بلغ الرتبة العليا من الحديث يُسمى الحافظ وعلم الحديث واللغة اخوان يجريان من وادٍ واحد)(٥٤).

ويصف الغبريني الحافظ أبو الخطاب بن دحيه بقوله: (وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة)(٥٥) ومن لقب (الحافظ) اشتقت بعض الألقاب الأخرى مثل أوحد الحفاظ، لسان الحفاظ، وحافظ المشرق والمغرب(٥٦).

وكانت مصر الأيوبية قد احتضنت جملة من الحفاظ المتقنين والذين كان لهم شأناً كبيراً في مجال دراسة الحديث وتدريسه، ويقف في مقدمة هؤلاء الحافظ ابو الطاهر السلفي الذي كان يُعد أوحد زمانه في علم الحديث وأعرفهم بقوانين الرواية والتحديث، وقد وصفه المؤرخون بأوصاف شتى منها (احفظ الحفاظ)(٥٧) و(امام المحدثين)(٥٨) و(شيخ الاسلام وحجة

الرواة)(٥٩) و(حافظ الاسلام وأعلى أهل الأرض اسناداً في الحديث والقراءات)(٦٠) و(مسند الدنيا ومعمر الحفاظ)(٦١). كما احتضنت مصر في تلك الحقبة عدداً من مشاهير الحفاظ مثال ذلك الحافظ تقي الدين المقدسي الجماعيلي (ت٦٠٠هـ/١٢٠٢م) الذي لم يُطلق الحافظ أبو طاهر السلفي (ت٥٧٦هـ/١١٧٨م) تسمية (الحافظ) إلاّ عليه وأيضاً الحافظ ابو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن دحيه الكلبي (ت٦٣٣هـ/١٢٣٥م) وأخيه الحافظ ابو عمرو عثمان بن الحسن بن علي الكلبي (ت ٦٣٤هـ/١٢٣٦م)، والحافظ زكي الدين المنذري (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) الذين تولوا مشيخة دار الحديث الكاملية على التوالي(٦٢).

ومن الالقاب الاخرى ذات الصلة بعلم الحديث، لقبي المحدث والمسند، والمحدث، لقب علمي يطلق على الشخص المتخصص بدراسة علم الحديث عن طريق الرواية والدراية والاحاطة بطرق الحديث وأسانيده وأسماء الرجال وغير ذلك(٦٣). ومنه اشتقت العديد من الألقاب الثانوية الأخرى كفخر المحدثين وعماد المحدثين(٦٤)، وقد احتضنت مصر في تلك الحقبة المئات من المحدثين الذين تصدروا لتدريس علوم الحديث النبوي الشريف في مساجدها ومدارسها(٦٥). أما السند فهو أدنى مراتب الحديث وأقل درجاتهم وألقابهم ويطلق على الشخص الذي يتولى رواية الحديث بإسناده سواء كان عالماً بطرق روايته وأسانيده، أو ليس إلا مجرد رواية له(٦٦).

٣- **الشيخ:** ويطلق على العالم الذي له مراتب علمية متقدمة فيقال شيخ المحدثين وشيخ النحاة وشيخ القراء ونحو ذلك. كما كان يطلق على من يتولى مشيخة دار الحديث الكاملية ورتبة (الشيخ) من الرتب المرموقة التي لا تناط الا بكبار العلماء حيث كان (الشيخ) يُعين بمرسوم سلطاني يعلن في احتفال خاص مما يدل على علو شأنه(٦٧).

ولا يرتبط الحصول على رتبة (الشيخ) بعمر العالم وإنما يتوقف على نبوغه وسعيه في التحصيل العلمي، فقد آلت مشيخة الاقراء بالديار المصرية للشيخ أبو الجود اللخمي (ت٦٠٥هـ/١٢٠٧م) وتصدر للاقراء في الجامع العتيق في مدينة الفسطاط وجامع الأمير موسك في القاهرة وهو في مقتبل

العمر، وبعد وفاة الامام الشاطبي شيخ الاقراء في الديار المصرية حينذاك. تصدر أبو الجود للاقراء في المدرسة الفاضلية(٦٨).

وكذا الحال بالنسبة للشيخ عبدالعزيز بن سحنون الغماري (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٦) الذي لازم شيخ النحاة بالديار المصرية وتتلمذ على يديه مدة طويلة (فصار شيخ العربية بمصر) وهو لم يبلغ الثلاثين من العُمر(٦٩).

وفي بعض الأحيان تولى كبار الشيوخ مناصب لا تتناسب مع مكانتهم العلمية المتقدمة فقد تولى الشيخ شرف الدين الميدومي أحد أبرز طلبة الحافظ زكي الدين المنذري وخاصته الاشراف على خزانة دار الحديث الكاملية، وطيلة مدة توليه المهمة كان يُدعى الى تولي مشيخة دار الحديث الكاملية، فيمتنع عن القبول مراعاة لمكانة شيخه، ثم تولاها بعد وفاته(٧٠).

٤- **الفقيه :** يطلق مصطلح الفقيه على العالم بالأحكام الشرعية وعلى (من صار الفقه له سجية)(٧١) بيد أن ذلك اللقب أصبح يطلق للدلالة على طلبة المدارس(٧٢).

أحوال المدرسين الاقتصادية:

إعتاد السلاطين الأيوبيين تخصيص مرتبات شهرية منتظمة للمدرسين تبعاً للمكانة العلمية لكل منهم، كما درجوا على شمول الكثير من أولئك المدرسين بالهدايا والهبات والعطايا التي غالباً ما كانت تُمنح لفئات معينة من المواطنين، فضلاً عما يتقاضاه من مبالغ مالية يخصصها الواقف لهذه المؤسسة أو تلك، لذا فقد عاش الكثير منهم في بحبوحة من العيش ونعموا بمستوى مالي مقبول(٧٣).

وكان أول مبلغ يُمنح لمدرس في مصر في العصر الأيوبي، هو ما خصصه صلاح الدين للشيخ نجم الدين الخبوشاني حينما أناط به مهمة التدريس في المدرسة الصلاحية في القاهرة والنظر في أوقافها. حيث شرط له ولمن يشغل ذلك المنصب من بعده مبلغ أربعين ديناراً شهرياً عن

التدريس وعشرة دنانير للنظر في أوقاف المدرسة، كما أمر بتخصيص ٦٠ رطلاً مصرياً من الخبز وراويتين من ماء النيل له في كل يوم(٧٤).

وبعد وفاة الخبوشاني عام ٥٨٧هـ / ١١٩١م، تعاقب على تولي مهمة التدريس والنظر في المدرسة عدد من العلماء كان أبرزهم برهان الدين السنجاري الذي كان يتقاضى الراتب ذاته، بيد أن ذلك المبلغ انخفض الى الربع في مدارس أخرى، ففي العام ٥٧٢هـ / ١١٨٦م، أنشأ صلاح الدين المدرسة السيوفية في مدينة القاهرة وفوض مسؤولية التدريس فيها للشيخ محي الدين الجُبتي براتب شهري يبلغ عشرة دنانير(٧٥). لذا فمن المرجح أن يكون للعلاقة الشخصية الوثيقة التي ربطت كلاً من صلاح الدين والخبوشاني دورٌ في تحديد مرتبه الشهري.

وطيلة العصر الأيوبي تفاوتت مرتبات المدرسين بشكل واضح، فقد كان أعلى مرتب يُمنح في ذلك العصر هو الذي منحه الملك العزيز عثمان للفقيه الحسن بن الخطير حينما استقدمه الى مدينة القاهرة راتباً شهرياً قدره ستين ديناراً ومائة رطل من الخبز وخروفاً وشمعة كل يوم(٧٦). فيما كان أقل راتب يُمنح في ذلك العصر هو ما خصص للنحوي اليمني سُليمان الخلي الذي كان يتصدر لتدريس النحو في أحد مساجد القاهرة على عهد الملك الكامل، حيث وصف القفطي(٧٧) بأن ذلك المرتب كان (بالنسبة الى العدم قريب) وغالباً ما كانت تُسند للمدرس مهام أخرى ينال من خلالها مرتبات مالية كالقضاء أو الاشراف على بيت المال أو غير ذلك من المهام، أما إذا توفي الفقيه أو المدرس وكانت له عائلة، فأنهم يمنحون من راتب تلك الوظيفة ما يَسِدُّ كفايتهم(٧٨).

وفي بعض الأحيان كانت المرتبات تُمنح عيناً، كما الحال بالنسبة للمدرسة القمحية التي أنشأها صلاح الدين في مدينة الفسطاط عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م للطلبة المالكية، ورتب بها أربعة مدرسين، حيث كانت نفقاتها من خيمت الحنبوشية بالفيوم، فكان يفرق محصولها من القمح على طلبة المدرسة ومدرسيها، لذلك سُميت بالقمحية(٧٩).

على أن الكثير من العُلماء كان يرفض مبدأ التدريس لقاء أجر مادي مفضلاً مزاولة أعمال أخرى لا تمت للتعليم بصلة كتجارة الأخشاب أو الكتان، أو البناء(٨٠). فيما زاول البعض منهم مهن لا تتناسب مع المكانة

العلمية الكبيرة التي كان يحظى بها كما الحال بالنسبة للفقيه أبو الطاهر المحلي الذي ابتدأ أمره شرابياً(٨١). كما مارس البعض منهم مهن أخرى ذات إتصال وثيق بالتعليم كالوراقة والنساخة والتجليد وصناعة الأقلام(٨٢).

ومها يكن من أمر فقد عانى الكثير من المشتغلين بالتعليم من شظف العيش، ولم تُجد نفعاً محاولات البعض منهم التقرب الى كبار رجالات الدولة الأيوبية بُغية تحسين أوضاعهم المادية كما الحال بالنسبة للنحوي الشهير أبو المحاسن البهنسي الذي شكى للقاضي الفاضل مرات عديدة ما هو عليه من ضيق العيش وضنكه حاثاً إياه على تخصيص مرتب له ولعائلة، بيد أن ذلك الطلب لم يلقَ أُذناً من قبل الفاضل(٨٣).

وكان الديون المتراكمة التي أثقلت كاهل بعض العلماء سبباً في نهايتهم المأساوية كما الحال بالنسبة لأثير الدين بن بنان الذي عجز عن تسديد الديون التي تراكمت عليه وآل به الأمر أن حُبس بالجامع الأزهر (وكان بعض من له عليه دين أعجمياً جاهلاً فصعد الى سطح الجامع وسفه عليه وقبض على لحيته ففر منه وألقى نفسه من سطح الجامع فتهشم وحُمل الى داره فبقي أياماً ثم مات سنة ٥٩٦)(٨٤)

وقاسى الشيخ أبو موسى الجزولي (ت ٦٠٧ هـ/١٢١٠م) النحوي الشهير وصاحب المقدمة الجزولية في النحو، طيلة مدة إقامته بمصر ذلك أنه لم يُدرس في أي من مدارسها وإنما (كان يخرج الى الضياع يؤم بقوم فيحصل على ما ينفقه في غاية الصبر ورجع الى المغرب فقيراً مدقعاً)(٨٥).

ولم يكن لأهل العلم من مدرسين أو طلبة، زياً يختص بهم، بل كان العالم يرتدي ما يروق له من الثياب التي تتلائم مع سنه ومكانته، بيد أن الدعوات بدأت تتصاعد مطالبة إياهم بالحفاظ على حُسنِ مظهرهم وهيئتهم، فما يروى عن الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي أنه كان يقول لأصحابه (تجملوا كي لا ينظر إليكم بعين الحقارة)(٨٦). ومنذ لك الحين أصبح لزاماً على العالم أو الفقيه مراعاة حُسن هيئته والتجمل في ثيابه من غير خيلاء أو تكبر(٨٧).

وكان لعلماء مصر وفقهائها زياً خاصاً بهم يميزهم عن سائر فئات المجتمع الأيوبي وكانت ملابس المدرسين والطلبة تدخل ضمن ذلك الزي

حيث كان يطلق عليهم جميعاً تسمية (المتعممون) ربما لأن العمامة هي الجزء الأكثر أهمية في زيهم، فقد ذكر القلقشندي(٨٨) (إن القضاة والعلماء يلبسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق قربوس سرجه إذا ركب). ومنهم من استعاض عن ذوابة العمامة بالطيلسان الفائق(٨٩).

ويبدو ارتداء الطيلسان في مصر كان يختلف عنه في بقية البلاد الاسلامية، فقد ذكر ياقوت الحموي(٩٠)، إن عثمان بن عيسى البلطي النحوي (ت٥٩٩هـ/١٢٠١م) انه كان (يعتم بعمة كبيرة جداً ويتطلس بطيلسان لا على زي المصريين، بل يُلقيه على عمامته ويرسله من غير أن يُديره على رقبته).

وقد انقسمت آراء الفقهاء ازاء فكرة ارتداء الطيلسان بين مؤيد له ومعارض فقد أجاز ابن الحاج(٩١) ارتداؤه اتقاءً للحر أو البرد أنه لم يُخف تحفظه أزاء ارتدائه خلاف ذلك، فهو يرى (أنه ريبة بالليل ومذلة بالنهار) ويُشبه مرتديه بالمرأة المحجبة. فيما حبذ ابن حجر الهيثمي(٩٢) ارتداؤه واصفاً إياه بأنه خلوة لمرتديه.

وفضلاً عن العمامة والطيلسان فقد كان عامة العُلماء والفقهاء يرتدون فوق ملابسهم الداخلية، فرجيه مفتوحة من الأمام من أعلاها حتى الذيل مزررة بأزرار(٩٣). أما كبار العلماء فقد استبدلوا الفرجيه بـ (دلقاً متسع الأكمام مفتوحاً فوق كتفيه بغير تفريج سابلاً على قدميه)(٩٤). كما شاركوا السلطان وقاضي القضاة في لبس الطرحة وهي قطعة من القماش الثمين توضع فوق العمامة(٩٥).

وكانت تلك الملابس تتخذ من الصوف الأبيض شتاء والقطن الأبيض صيفاً. أما الملابس الملونة فلم يرتدوها إلا في منازلهم أو في بعض الطرقات. كما كانوا يلبسون في أقدامهم من الجلد الطائفي بدون مهاميز(٩٦).

وبالرغم من وجود زي خاص بالعلماء والفقهاء، إلا أن البعض منهم لم يتقيد بذلك الزي، فقد كان الفقيه ضياء الدين الهكاري يلبس لباس الأجناد ويعتم بعمائم الفقهاء فيجمع بين اللباسين(٩٧). كما عُرف عن شيخ الاسلام

عز الدين بن عبد السلام أنه كان يخرج لبعض دروسه وهو مرتدٍ فروة مقلوبة وعلى رأسه قُبع لباد(٩٨).
اما وسائل تنقل كبار العلماء فقد كانت البغال الملجمة بلجام ثقال وسروج، أما من هم دونهم فلربما ركبوا الخيول(٩٩). بيد ان ابن سعيد ذكر أنه شاهد الفقهاء وأصحاب البزه والشاره الظاهرة في مصر أواخر العصر الأيوبي يركبون الحمير(١٠٠).

أحوال المدرسين الأجتماعية:

كان للمدرسين حضورهم المتميز في قضايا المجتمع، لاسيما تلك التي يقف السلطان طرفاً أساسياً فيها، فحين خلع الملك العادل، الملك المنصور، ودعا الناس لبيعته، أنكر بعض العُلماء عليه ذلك، كما الحال بالنسبة للفقيه ضياء الدين بن الوراق (ت ٦١٦ هـ/١٢١٨م) الذي كان يتصدر للتدريس بمسجده بمحلة الرصد في مدينة القاهرة، حيث أنحى باللائمة على جموع الناس الذين حضروا لأداء اليمين للسلطان الجديد قائلاً: (ما هذا الحلف؟ بالأمس حلفتم للمنصور، فأن كانت تلك الأَيمان باطلة فهذه باطلة وإن كانت تلك صحيحة فهذه باطلة.... فأمر العادل بالحوطة على جميع موجود الفقيه وماله وأملاكه واعتقاله)(١٠١).

وطيلة مدة إقامته في مصر، لم يخفِ الحافظ تقي الدين المقدسي (ت٦٠٠هـ/١٢٠٢م) إمتعاضه من الكثير من الممارسات الخاطئة التي سادت المجتمع المصري حينئذ، لاسيما انتشار ظاهرة بيع الخمور وضمان الدولة لأماكن بيعها وكذلك انتشار ظاهرة بيع الآلات الموسيقية من شبابات وطنابير وغير ذلك(١٠٢).

كما لم يخفِ الحافظ وعارضته لخطط الملك العادل بمحاصرة مدينة ماردين مرة أخرى محذراً إياه من تكرار ذلك العمل ثانية حيث قال: (إيش هذا؟ وأنت بعد تريد قتال المسلمين، ما تشكر الله فيما أعطاك إماماً؟ قال: وسكت الملك العادل فما أعاد ولا بدى؟)(١٠٣).

أما قاضي القضاة شرف الدين الصفراوي الاسكندراني (ت ٦٣٦هـ/١٢٣٨م) فقد رفض شهادة سلطان مصر الملك الكامل محمد في احدى القضايا، متذرعاً بأن الملك يملك ولا يشهد، وحين أصر الكامل على الادلاء بشهادته أمام القاضي، ازداد اصرار ابن عين الدولة على استبعاد السلطان مهدداً في الوقت ذاته بالاعتزال عن القضاء إذا ما أصر السلطان على موقفه، الأمر الذي أجبر السلطان عن الانسحاب والاعتذار للقاضي عما بدر منه(١٠٤).

ولم تمنع الظروف القاسية التي دعت شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام، للهجرة الى مصر، من المجاهرة والتصريح بمواقفه المعارضة لبعض سياسات الدولة التي تتعارض مع مبادئ الدين الحنيف، بالرغم من المحاولات العديدة التي بذلها السلطان وأركان دولته لكسب ود الشيخ من خلال إناطة العديد من الوظائف الحكومية المهمة به(١٠٥). ولعل حادثة الطبلخانة، خير شاهد على الدور المهم الذي اضطلع به الشيخ ابن عبد السلام في معارضته سياسات الدولة الأيوبية(١٠٦)، بيد أن الحادثة الأهم، كانت إنكار ابن عبد السلام على الملك الصالح تساهله في موضوع بيع الخمور وشيوع المنكرات في مدينتي القاهرة والفسطاط، وقد بلغ من حنقه على أركان الدولة الأيوبية، أن خاطب السلطان باسمه المجرد، دون الالتفات الى ما يمكن أن يجره ذلك التصرف من عواقب وخيمة وكانت نتيجة ذلك، أن سارع الملك الصالح الى استرضاء الشيخ والاعتذار له عن ذلك، حيث أصدر أمراً بازالة جميع حانات الخمور(١٠٧).

ونتيجة للمواقف الصلبة التي اتخذها البعض من كبار المدرسين، من مختلف قضايا المجتمع، فقد نالوا كثيراً من التقدير والاجلال وليس أدل على ذلك من مشاركة السلاطين بأنفسهم أو من ينوب عنهم، فضلاً عن كبار رجالات الدولة وقادتها، فقد تقدم الملك العادل وكبار رجال دولته الأعداد الغفيرة من سكان القاهرة والفسطاط التي شيعت جنازة الفقيه الشافعي الكبير

شهاب الدين الطوسي عام ٥٩٠هـ/١١٩٢م(١٠٨)، وشارك كبار أمراء الدولة الأيوبية في تشييع جنازة الحافظ تقي الدين المقدسي الذي توفي في ربيع الأول عام ٦٠٠هـ/١٢٠٢م(١٠٩). وناب الملك العادل الثاني عن والده الملك الكامل الذي كان غائباً في الشام، لتشييع جنازة الفقيه أبو الطاهر المحلي الذي توفي في ذي القعدة من عام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م، (وصادف ذلك شدة حر فيقال أنه صحب الجنازة عدة إبل كثيرة لأجل الماء وقيل أنه لم يشهد بمصر بعد جنازة المزني صاحب الشافعي مثل جنازة الفقيه أبي الطاهر)(١١٠).

العلاقات بين العلماء:

لم تخلُ العلاقات بين المدرسين من التخاصم والحسد، ربما للمكانة المرموقة التي بلغها بعض العلماء والتي كانت سبباً في تحامل الآخرين عليهم، لذا فقد أثيرت حولهم الاشاعات بل والساعايات التي كان الغرض منها الحط من شخصية هذا العالم أو ذلك، كما الحال مع العلامة الشهير عبد الله بن بري والذي كان يُعد رأس النحاة في مصر حينئذ(١١١).

ولقي الحافظ تقي الدين المقدسي (ت٦٠٠هـ/١٢٠٢م) بعد وصوله الى مصر من الحفاوة والتكريم من لدن الملك العادل أبي بكر، ما ألب الكثير من المخالفين له والناقمين عليه الذين (كانت رائحة السلطان تمنعهم من أذى الحافظ لو أرادوه)(١١٢). بل ان البعض منهم بذل في قتل الحافظ مبلغ خمسة آلاف دينار(١١٣). وقد سنحت لهم الفرصة عند سفر الملك العادل الى الشام حيث أوعزوا صدر الملك الكامل عليه حتى عزم على اخراجه من مصر بعد اعتقاله لسبعة أيام، وكادت أهدافهم أن تتحقق لولا شيخ الشيوخ بن حمويه وعز الدين الزنجاني أحد الفقهاء المقربين من الملك الكامل الذين أوضحا له السيرة الحسنة للحافظ وأن ما يتعرض له من قبل بعض العلماء إنما هو من قبيل الحسد، مما حمل الكامل على تغيير موقفه حيث أمر برد الدعاوى المناوئة للحافظ وان (لا يصل إليه شيء يكرهه)(١١٤).

وأثار النجاح الذي حققه سيف الدين الآمدي (ت ٦٣١هـ/١٢٣٣م) في مصر، طائفة من الفقهاء الذين تعصبوا عليه ونسبوه الى فساد العقيدة والتعطيل والانحلال وكتبوا بذلك محضراً يتضمن استباحة دمه، وعندما حُمل الكتاب الى بعض العُلماء ليكتب فيه مثلما كتبوا، فكتب:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالناس أعداءٌ لهُ وخصوم(١١٥)

وفي بعض الأحيان، كان السلطان سبباً في النزاع أو الشجار الذي يندلع بين العُلماء، فقد سبقت الاشارة الى أن الملك العزيز عثمان اصطحب معه الفقيه الحسن بن الخطير المعروف بالظهير من بيت المقدس ليقمع به الفقيه شهاب الدين الطوسي لأمور نقمها عليه(١١٦). فقربه ورتب له معلوماً جارياً فكان ذلك سبباً في اندلاع الشاحنات والمجادلات الكلامية المتعددة بين الفقيهين والتي غالباً ما كانت تنتهي بالسباب والكلام المقذع، فكان ذلك سبباًَ في أن يعتزل الظهير الحياة العامة (فكان مآل أمره أن انضوى الى مدرسة الأمير الأسدي يُدرس بها مذهب أبي حنيفة الى أن مات)(١١٧).

على أن حياة المدرسين لم تكن جميعها تجري في اطار التباغض والتخاصم والتحاسد بل سادت علاقات المودة والاحترام جوانب أخرى من تلك العلاقات، فعندما استقر الحافظ تقي الدين المقدسي في مصر، كان الفقيه زين الدين بن نجا (ت ٥٩٩هـ/١٢٠١م) يتحدث بفضائله على المنبر حاثاً الناس على حضور مجالسه العلمية التي كان يعقدها بجامع القرافة، وكان من نتائج تلك الدعوات أن تزاحم الطلبة على مجلس الحافظ يأخذون الحديث عنه(١١٨).

أما الحافظ زكي الدين المنذري (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) الذي تولى مشيخة دار الحديث الكاملية لأكثر من عشرين عاماً وعليه مدار الفتوى في الفقه الشافعي، فقد امتنع عن الافتاء احتراماً لمقدِم شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام الى الديار المصرية حيث قال: (كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين وأما بعد حضوره فمنصب الفُتيا متعين فيه.)(١١٩)، وفضلاً عن ذلك كان كلٌّ منهما يزور مجلس الآخر ويأخذ التفسير في درسه(١٢٠).

ثانياً. الطلبة:

كان لتزايد أعداد المدارس في مصر واتساع نطاق التعليم في المساجد، أن تزايدت أعداد الطلبة لاسيما الوافدين منهم من أقطار شتى كبلاد الشام والمغرب العربي والأندلس وغيرها والذين وجدوا من أسباب الدعم والرعاية ما شجعهم على الاقامة في مختلف مدن مصر وتلقي تحصيلهم العلمي فيها. فقد ذكر ابن جبير(١٢١) ان صلاح الدين خصص لكل طالب غريب مسكناً يأوي إليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يرغب فيه وراتباً شهرياً يكفي لسد جميع متطلباته. كما أنشأ بالقرب من تلك المدارس حمامات يستحم فيها الطلبة ونصب لهم مستشفى قريباً لمعالجة من يمرض منهم. لذلك فقد توفرت الفرص امام الجميع للالتحاق بالمدارس فاستطاع الفقراء نتيجة لذلك الالتحاق بمعاهد التعليم المختلفة من مساجد ومدارس وبيماريستانات ونحو ذلك، وان يتزودوا بالمعرفة في مختلف الفنون دون عناء. وكان للأوقاف التي رصدها الامراء والأغنياء على معاهد التعليم والطلبة، اثر كبير في اوضاع التعليم في مصر حينذاك، اذ ظهرت اعداد من بين الطلبة اعداد كبيرة من العلماء الكبار الذين ينتمون الى طبقة الفقراء والكادحين من الشعب(١٢٢).

بيد إن اتاحة الفرص لم تكن مكفولة فقط في المدارس والمساجد فحسب، بل كانت مكفولة ايضاً في مكاتب الأطفال إذ أنشأ الكثير من الامراء والوزراء الايوبيين وذوي اليسار اعداداً كبيرة من المكاتب ورصدوا لها الأوقاف اللازمة لتسيير شؤونها. وقد ساهمت تلك المكاتب الى جانب المكاتب التي أنشأتها الدولة في توفير فرصة التعليم المجاني للأطفال اليتامى أو الفقراء والأخذ بأيديهم الى مرحلة متقدمة من مراحل التحصيل العلمي، وفضلاً عن مجانية، تلقى الطلبة الأطعمة والجرايات التي تسمى (الجامكيات) ويبدو ان مقادير تلك الجامكيات لم تكن خاضعة لضوابط أو شروط معينة في مطلع العصر الأيوبي اذ يذكر ابن جبير(١٢٣) إن مساجد ومشاهد القرافة كانت تعج بالعلماء والفقهاء والطلبة والمتصوفة فضلاً عن الغرباء الذين قصدوا مصر من بلاد شتى والإجراء الذي كانوا يقومون بخدمة تلك المساجد والمشاهد، وكان لكل منهم راتب شهري من قبل السلطان صلاح الدين (والمدارس التي بمصر كذلك، وحقق عندنا ان الاجراء على ذلك كله نيّف علي الفي دينار مصرية في الشهر، وهي اربع

آلاف دينار مؤمنية). ويبدو ان مقدار تلك الجرايات كان يتوقف على الوقت الذي يمضيه الطالب في المدرسة وتحصيله العلمي فقد ذكر السبكي(١٢٤) ان أحد الطلبة جلس بين يدي قاضي القضاة وجيه الدين البهنسي الفقيه والنحوي المصري قائلاً: (انظر في أمري لي أربع سنين في هذا الموضع وحفظت أربعة كتب وجامكيتي أربعة دراهم) وكما تركت أبواب التعليم في مصر مفتوحة للراغبين في دخولها، فقد هيأت الفرصة امام الطالب ليدرس كيفما يشاء، فيختار الاستاذ الذي يناسبه ويرغب في علمه ووفرت له بذلك حرية الدرس(١٢٥).

وكان للأوضاع الاقتصادية السيئة التي عاشتها مصر في عهدي الملك العزيز، والملك العادل أبو بكر كان لها الأثر الواضح على الأوضاع المادية للطلبة. وفي بعض الأحيان كان لتلك الجامكيات التي يتقاضاها الطلبة الأثر في ادامة بعض المدارس والحفاظ عليها من الخراب والزوال كما هو الحال بالنسبة للمدرسة الناصرية المجاورة للجامع الكبير في مدينة الفسطاط حيث امتد الخراب الى المنطقة المحيطة بها (ولولا ما يتناوله الفقهاء من المعلوم بها لخربت)(١٢٦).

تباينت أعداد الطلبة في المؤسسات التعليمية في مصر من مؤسسة لاخرى فكانت اعدادهم في حلقة المسجد غير محدد بل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بشخصية المدرس ومكانته العلمية.

اما في المدرسة فقد جرت العادة ان يُقرر مؤسس المدرسة عدد المدرسين الذين يتولون التدريس فيها وكذلك اعداد الطلبة المسموح لهم بالالتحاق بها. وعلى العموم فقد تراوحت اعداد الطلبة في المدرسة الواحدة ما بين تسعين الى مئة طالب. ففي معرض ترجمته لحياة الفقيه أبو الفضل الحسين بن أحمد بن بندار اليزدي الحنفي (ت ٥٩١هـ/١١٩٣م) ذكر المنذري(١٢٧)، إن ابن بندار كان يتولى الاشراف على احدى عشرة أو اثنتا عشرة مدرسة وفيها من الطلبة ألف ومائة طالب.

وقد قُسِّم طلبة المدارس الى فئتين: مبتدئين ومنتهين فضلاً عن طلبة التفسير والحديث(١٢٨). ويبدو أن ذلك التقسيم يعود الى عدم تقيد الدراسة بزمن معين، لذا فأن ترك جميع الطلبة في فئة واحدة وعدم مراعاة الفوارق العلمية فيما بينهم الى اشكالية في استيعاب الطلبة المبتدئين في المسائل المتقدمة كما

قد يؤدي الى تكاسل الطلبة المنتهين الذين اتخذ قسمٌ منهم العلم كوسيلة لطلب الرزق(١٢٩).

وقد تنبه بعض المهتمين بشؤون التعليم لتلك المسألة فأوصوا المدرس بضرورة ان يحسن إلقاء الدرس وافهامه للحاضرين وعدم إلقاء المسائل المشكلة على المبتدئين منهم (بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون الى ان ينتهوا الى درجة التحقيق وان كانوا منتهين فلا يلقي عليهم الواضحات بل يدخل بهم في مشكلات الفقه ويخوض بهم عبابه الزاخر(١٣٠)).

ولم تكن هناك سن معينة لطلب العلم ذلك أن الدولة الأيوبية لم تفرض التعليم فرضاً، وانما اعتبر التعليم فرضاً من الفروض الدينية التي أباحت للمسلم طلب العلم في مرحلة من مراحل حياته بيد ان المتعارف عليه وقتذاك ان يلتحق الطلبة بالدراسة في المساجد أو المدارس بعد انهائهم لدراستهم في الكتّاب أي في سن الحادية عشر لكن هناك من أتم دراسته الأولية قبل تلك السن كما هو الحال بالنسبة لبهاء الدين ابن الجميزي الذي أتم حفظ القرآن في الكتّاب عند سن العاشرة فرحل به والده الى دمشق حيث ألحقه بحلقة درس الحافظ أبو القاسم بن عساكر(١٣١).

وقت الدرس وآدابه:

لم يكن هناك وقت محدد لانعقاد الدرس، بل غالباً ما كان ينعقد تبعاً لوقت المدرس فقد كان البعض منهم يعقد درسه فجراً كالإمام الشاطبي الذي كان يعقد درسه بعد الانتهاء من صلاة الفجر مباشرة(١٣٢). فيما كان صالح بن عادي الأنماطي النحوي المصري يعقد درسه بجامع قفط ما بين الظهر والعصر(١٣٣).

وأحياناً يعمد بعض المدرسين الى توزيع وقته ما بين التدريس والمناظرة كما الحال بالنسبة للفقيه ظافر بن الحسين الأزدي الذي كان (يُدرس في أول النهار ثم يجيء بعد الظهر للمناظرة الى العصر ويأخذ درساً بعد العصر والمناظرة بين العشائين)(١٣٤). بيد أن البعض الآخر لم يلتزم بوقت محدد للتدريس فقد كان الشيخ أبو حفص الرؤبي المقدسي المعروف بابن البناء يعقد مجالس درسه في الليل والنهار على السواء بالرغم من تقدمه بالسن(١٣٥).

أما الآداب الخاصة بسلوك المُدرس اثناء الدرس، فقد اشار بعض المهتمين بشؤون التعليم شيئاً منها، إذ يجب عليه ان يكون على طهارة تامة أثناء إلقائه الدرس، وأن يكون حَسِن الهيئة والثياب، وأن يجلس مستقبلاً القبلة، وأن يبدأ بقراءة شيء من القرآن الكريم والالتزام بالهدوء والوقار وعدم المُزاح والضحك أثناء إلقائه الدري، وأن يكون صوته مسموعاً من قبل الحاضرين بحيث لا يكون عالياً أكثر مما يجب ولا خافت فيحرم بعض الطلبة من سماعه، وأن يعطي الدرس حقه من الشرح فلا يُطيل في ذلك على الطلبة فيسأموا من الجلوس ولا يُقصِّر فيه فيحرم الطلبة من الفائدة والفهم(١٣٦).

كما أوجبوا على المدرس ضرورة مراعاة الفروق الفردية بين الطلبة، فيفرق بين الأذكياء ومتوسطي الذكاء والضعفاء المحدودي التفكير فيعطي كلاً منهم ما باستطاعته تلقيه وفهمه وإدراكه، كي يكون الدرس شاملاً يستفيد منه جميع الطلبة أو غالبيتهم على أقل تقدير، وإلّا كان (كالطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد، قتل أكثرهم)(١٣٧).

وبالمقابل فقد كان مدرسي مصر في تلك الحقبة على درجة عالية من الكياسة واللياقة وحسن الأدب أثناء القائهم للدرس، فما يُعرف عن الحافظ السلفي انه كان اذا جلس للدرس (لا يشرب ماءً ولا يبزق ولا يتورك ولا يبدو له قدم)(١٣٨).

أما الامام الشاطبي فكان لا يجلس للدرس (إلا على طهارة في هيئة حسنة وتخشع واستكانة)(١٣٩). وكذا الحال بالنسبة للشيخ شمس الدين الأصفهاني الذي يوصف (كان وقوراً في درسه)(١٤٠). بل عرف عن بعض كبار الأساتذة شدة عنايتهم بطلبتهم والرفق بهم أثناء الدرس فقد ذكر السبكي إن أحد طلبة الشيخ أبو الطاهر المعلي كان قد نعس أثناء الدرس، فلم يشأ الشيخ إيقاظه بصورة مباشرة لئلا يلفت انتباه بقية الطلبة مما يضعه في موقف محرج لذا فقد عمد الى ضرب إحدى يديه على الأخرى، عندئذ انتبه الطالب وواصل درسه(١٤١).

وكان ينصح المدرس بعدم القاء الدرس إلا اذا كان لديه الاستعداد النفسي لذلك فلا يُدرس في أوقات جوعه أو عطشه أو نعاسه او قلقه أو همه

أو غضبه، كذلك يُنصح بعدم التدريس في أوقات البرد أو الحر الشديد لأن ذلك من شأنه أن يفضي إلى إجابة أو إفتاء خاطئ(١٤٢).

وكان لطبيعة شخصية المدرس وطريقة أدائه في الدرس أثرها الواضح في إقبال الطلبة عليه، فما يُعرف عن الشيخ علم الدين الأنصاري إنه كان منبسط النفس حَسِن المناكهة كثير الحكاية والنوادر (وكان كثيراً ما يشغل الطلبة بالعلم حتى أن معظم من بديار مصر اشتغل عليه)(١٤٣) وكان للامام الشاطبي طريقته الخاصة في تدريس (القراءات) فكان إذا اتخذ مجلسه في قاعة الدرس(لا يزيد على قوله من جاء أولاً فليقرأ ثم يأخذ على الأسبق فالأسبق)(١٤٤).

ثالثاً. مناهج التعليم

اختلفت مناهج التعليم باختلاف المعاهد التعليمية، فما كان يدرس في المسجد أو المدرسة يختلف عن المناهج التي كانت تُدرس في الكتاتيب، وما كان يُدرس في بيوت العُلماء يُغاير ما كان يُدرس في المؤسسات الصوفية، بيد أن توجهات القائمين على شؤون التعليم في الدولة الأيوبية، أوجدت تنظيماً معيناً للمنهاج يرتكز أساساً على تدريس العلوم الدينية وفقاً للمذاهب الأربعة، فيما كانت علوم اللغة العربية وآدابها عوامل مساعدة على فهم العلوم الدينية. أما دراسة التاريخ والأخبار، فلم تكن سوى مادة ثقافية تكميلية ومع ذلك فقد التمس دارسوها أن لها صلة من قريب أو بعيد بالدراسات الدينية، فهذا علي بن ظافر الأزدي (ت٦١٣هـ/١٢١٧م) الذي يُعد من الفقهاء المميزين والذي ارتقت به مكانته العلمية الى أن تناط به مسؤولية التدريس في المدرسة الناصرية في مدينة الفسطاط بعد وفاة والده، (قرأ الأدب ونظر في تواريخ الملوك والوزراء من العرب والعجم وحفظ منها جملة كبيرة)(١٤٥). وكذا الحال بالنسبة للحافظ زكي الدين المنذري الذي تولى مشيخة دار الحديث الكاملية لأكثر من عشرين عاما، أقبل على دراسة التاريخ في مرحلة متأخرة من مراحل حياته العلمية بعد أن قضى معظم حياته في دراسة العلوم الدينية(١٤٦).

والمتتبع لواقع النشاط العلمي في مصر في تلك الحقبة، لا يجد صعوبة في تشخيص سمتين رئيسيتين اتسم بهما ذلك النشاط، تتلخص الأولى بندرة التخصص العلمي الدقيق، إذ لم يتقيد الطلبة خلال مدة دراستهم

بمنهج معين يتبعونه بعد اجتيازهم المرحلة الاولى، بل كانوا يختارون من المواد الدراسية ما يناسبهم ومن الكتب ما يرغبون فيه متأثرين في ذلك بشخصية المُدرس ومكانته العلمية، وشهرة المدرسة التي يدرسون بها وطبيعة المدرسة فيها ووفرة الأوقاف المخصصة لطلبة العلم الدارسين في تلك المدرسة، مما يعني عدم اكتراث الطالب باختيار علم بذاته والتخصص في دراسته، لذا لا غرو أن لا نجد من بين العلماء في تلك الحقبة من يختص بتدريس علم بذاته، إلا في حالات قليلة، فغالباً ما كانوا يجمعون ألواناً مختلفة من الثقافة والمعرفة كما تشير لذلك كتب التراجم والطبقات(١٤٧).

بيد أن ذلك لا يعني انقطاع التخصص العلمي بصورة مطلقة، إذ نجد من بين علماء ذلك العصر من تخصص بدراسة وتدريس علم معين كالحافظ أبي الطاهر السلفي والحافظ المنذري اللذين برزا في علم الحديث، والإمام أبو القاسم الشاطبي وصهره كمال الدين الضرير (ت٦٦١هـ/١٢٦٢م) في علم القراءات، وجلال الدين بن شاس (ت ٦١٦هـ/١٢١٩م) في الفقه المالكي وشيث بن ابراهيم القفطي (ت٥٩٢هـ/١١٩٦م) في الفقه المالكي، وعبد الله بري وعمرو بن الحاجب (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م) في اللغة العربية وعلومها(١٤٨).

ويعزو أحد الباحثين سبب قلة الانصراف الى التخصص العلمي بصورة واضحة في ذلك العصر، الى طبيعة الحركة العلمية التي بدأت واستمرت مدة طويلة، قوية مندفعة لمقاومة الدراسات الفلسفية والمنطقية التي كانت الوسيلة الأساسية من وسائل الدعاية الاسماعيلية حيث استندت تلك الحركة الى الدراسات النقلية التي اعتمدت القرآن الكريم والحديث الشريف وآراء أئمة المذاهب الأربعة منطلقاً لها. وقد حظيت تلك الحركة بدعم كبير من قبل السلاطين والأمراء والحكام ومن اتصل بهم والذين بدأوا يتنافسون في انشاء المدارس وتخصيص الأوقاف اللازمة لديمومتها، فضلاً عن تقريب العلماء واستشارتهم في شؤون الدولة المختلفة(١٤٩).

أما السمة الثانية فهي عدم الاهتمام بالعلوم الطبيعية مقارنة بما حظيت به العلوم الدينية والإنسانية من اهتمام وتشجيع، إذ لم نلحظ وجود علماء بارزين في مجال الرياضيات أو الجغرافية أو الفلك أو الكيمياء أو غير ذلك

من العلوم الطبيعية في مصر وقتذاك ولعل ذلك يمكن أن يعود لجملة من الأسباب منها:

١- التعصب المذهبي:

كان لالتزام سلاطين البيت الأيوبي بنشر مبادئ المذهب الشافعي والعقيدة الأشعرية، الأثر الفاعل في انتشار التعصب المذهبي بين سائر المذاهب والجماعات الاسلامية فصارت الدروس تُلقى والمصنفات تصنف نصرة للمذاهب المتبعة وكثيراً ما انتهت تلك الحوادث والنقاشات الى معارك وفتن ومناوشات وكما تقدمت الاشارة الى الصراعات التي غالبا ما كانت تندلع بين الشافعية والحنابلة لاسيّما تلك التي اندلعت بسبب اقدام نجم الدين الخبوشاني، الفقيه الشافعي على نبش قبر ابن الكيزاني الحنبلي(١٥٠).

بيد أنه من المهم أن نذكر هنا إن الأحداث التي شهدتها مصر في تلك الحقبة لم تكن سوى صورة مصغرة للأحداث التي شهدها العالم الاسلامي حينئذ، فابن جبير(١٥١) يُقدم صوراً غريبة لما شاهده في رحلته وقتذاك، فقد ذكر ان أتباع كل مذهب كانوا يؤدون صلاتهم في المسجد الحرام منفردين عن غيرهم من المذاهب الاخرى. وأن أنصار كل مذهب كانوا يحرمون للحج من مكان يختلف عن المكان الذي يُحرم منه أتباع المذهب الآخر(١٥٢). وبعد أن تجول في أنحاء المشرق، وأطلع على مؤسسات التعليم في مصر والحجاز والشام والعراق ومقارنته بمجتمع دولة الموحدين في المغرب، خلص ابن جبير الى رأي مفاده أنَّ (لا إسلام إلا ببلاد المغرب، لأنهم على جادة واضحة، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وبدع وفرق ضالة وشيّع إلا من عصم الله عزّ وجّل من أهلها)(١٥٣).

على أن مجتمع الموحدين وبرغم تميزه على سائر المجتمعات المشرقية في مجالي العقيدة والأخلاق– على حد قول ابن جبير– فان ذلك لا يعني خلوه من مظاهر التعصب المذهبي بسبب سيطرة الفقهاء المالكية الذين لم يتيحوا الفرصة لفقهاء المذاهب الأخرى لطرح أفكارهم في مجال التربية والتعليم(١٥٤).

وكان لذلك التعصب المذهبي، أثر واضح في توجيه مؤسسات التعليم في مختلف أنحاء مصر، فانقسمت الى مدارس للشافعية وأخرى للمالكية

وثالثا للحنفية، فيما خلت من أيِّ مدارس للحنابلة، أما بسبب قلة أعدادهم أو بسبب المشاكل التي كانوا يُثيرونها بين الآونة والأخرى وهو ما حمل بعض سلاطين مصر الى التفكير جدياً بإجلائهم من مصر(١٥٥). أما الربط والزوايا فقد استقلت وراح كل فريق منها يتصور المنهاج التعليمي تصوراً جزئياً لا يخرج عن نطاق الاطار المذهبي الذي حصر نفسه ضمنه، بل ان تلك الظاهرة امتدت أحياناً الى المؤسسة الواحدة كما حدث في المدرسة الصالحية التي أنشأها السلطان الملك الصالح عام ٦٣٩هـ/١٢٤١م حيث قسمت الى أربعة أواوين، اختص كل إيوان منها بتدريس فقه مذهب معين(١٥٦).

آراء القائمين على شؤون التعليم

شكلت الأفكار والآراء التي طرحها المهتمون بشؤون التعليم والقائمين عليه من محتسبين ومربين مثالاً حياً للتراجع والركود الذي عانت منه مناهج التعليم في العالم الاسلامي بصورة عامة ومصر بصورة خاصة في تلك الحقبة، فتعليمات المحتسبين الذين كانوا يشرفون على برامج المؤسسات التعليمية وأساليب عملها من ضمن ما كانوا يشرفون عليه من مؤسسات، كان يمكن النظر اليها حينئذ من منظارين: أنها كانت تمثل انعكاساً حقيقياً لحالة الجمود الذي عانت منه تلك المناهج كما أنها عكست قصوراً واضحاً في ذهنياتهم نجم عنه انحسار حقيقي لتدريس العلوم الطبيعية. أما المنظار الثاني فانه ربط النظرية التعليمية بآراء وأفكار جامعة لا تتطور ولا يقف ورائها مربون كبار وهو ما أصاب المناهج التعليمية بحالة من الركود بل التراجع.

وخير مثال على ذلك الآراء والأفكار التي طرحها جلال الدين نصر بن عبد الرحمن الشيزري(ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م)(١٥٧) والذي يُعتقد أنه عمل محتسباً في الدولة الأيوبية، وهي تعليمات بقيت قائمة بعده لقرون(١٥٨). فقد أوجبت تلك التعليمات نظاماً محدداً للمنهج الدراسي يبدأ بتعلم الحروف وضبط أشكالها ثم حفظ وتعلم سور القرآن الكريم القصار ثم دراسة مقدمات بسيطة من السُنة النبوية ثم أصول الحساب وما يستحسن من الرسائل والأشعار، وقد منعت تلك التعليمات، الأطفال من حفظ دواوين الشعر لكبار شعراء الشيعة، كما حظرت تعليم المرأة لأن ذلك مما يزيدها شراً(١٥٩).

أما آراء وأفكار كبار المربين في تلك الحقبة فلم تكن أكثر رُقياً من آراء وأفكار المحتسبين فالشيخ برهان الدين الزنوجي(ت٥٩١هـ/١١٩٥م) والذي يُعد أبرز من يُمثل مفاهيم التربية والتعليم الاسلامية في تلك الحقبة، يطرح مجموعة من الأفكار المقتبسة والمستندة الى آراء وأفكار سابقة لاسيما أفكار الغزالي والتي تعكس بصورة واضحة حالة الركود التي كان منهاج التعليم الاسلامي قد آل اليها حيث دعا الى التزام التراث ودراسة العتيق دون المحدثات وعدم الانشغال بالجدل الذي ظهر بعد انقراض كبار العُلماء ذلك أنه يبعد الطالب عن دراسة الفقه كما أنه مدعاة لإثارة العداوة والوحشة بين الدارسين وهو من علامات الساعة وارتفاع العلم(١٦٠). بل ذهب أبعد من ذلك حينما حذر الطلبة من الكتابة بالحبر الأحمر لان ذلك من وجهة نظره من صنيع الفلاسفة(١٦١).

أما آرائه وتصوراته عن التعليم فقد كانت مزيجاً بين الحقيقة والخرافة والصواب ولعل ما قرره بشأن أسباب الحفظ والنسيان، خير شاهد على ذلك(١٦٢) وكذا الحال بالنسبة لانتقاء الطالب للعلم الذي يرغب دراسته(١٦٣). وآداب الدرس التي غالى بها لدرجة تبعث على السخرية فقد دعا الى تعظيم الاستاذ وتوقير أولاده ومن يتعلق به ودعوته لخدمة الاستاذ في بيته، والا يتناول الطالب الكتاب من استاذه إلا وهو على وضوء(١٦٤).

٣- تدخّل الدولة في شؤون التعليم:

ترتب على انتشار التعصب المذهبي وتقرير التقليد في مصر الأيوبية، تراجع واضح لدور العلماء والمفكرين في تقرير شكل السياسة التعليمية الواجب اتباعها اذ لم يترك سلاطين البيت الايوبي للقائمين على شؤون التعليم، التخطيط الشامل والمناسب لمناهجه وأساليبه وفقاً لما تستوجبه الضرورة وتقتضيه الأهداف التعليمية المعتمدة، بل عمدوا جاهدين لاستغلال المؤسسات التعليمية والدينية من أجل تأمين الولاء الروحي للسلاطين وفرض هيبتهم من جهة، واستنفار كافة الامكانات المتاحة لدى السكان لمواجهة الخطر الصليبي من جهة اخرى.

ففي الوقت الذي استمروا فيه برعاية مؤسسات التعليم من مدارس ومساجد وبقية المؤسسات الصوفية، فأنهم كانوا ينزلون العقوبات بالعاملين فيها ويعزلونهم عن العمل إذا ما خرجوا عن أوامر السلطة أو جاءوا بما لا

ترضاه(١٦٥). وفي بعض الأحيان كان التعليم يوجه وفقاً لمخططات السلطان ورغباته الخاصة، فقد استقدم الملك العزيز عثمان، الفقيه الحسن بن الخطير النعماني المعروف بالظهير (ت ٥٩٨هـ/١٢٠١م) من بيت المقدس ورتب له معلوماً يعد الأعلى مقارنة بالمرتبات التي تتقاضاها أسلافه أو من جاء بعده، بيد أن الهدف من استقدامه لم يكن خدمة للنشاط العلمي، وانما كان ردعاً لأحد الفقهاء البارزين في مصر حينئذ وهو شهاب الدين الطوسي لأمور نقمها عليه(١٦٦). وكان كره الكامل لنحاة مصر وعدم تقريبه إياهم، سبباً في استقدامه لأشهر نحاة الشام واليمن والمغرب وتقريبه لهم وترتيب الأماكن اللائقة بهم في المدارس والمساجد وتخصيصه المرتبات الكافية لسد احتياجاتهم(١٦٧).

وكان لتلك السياسة آثارها الواضحة على التعليم ومؤسساته، فقد أصبح العلماء والفقهاء مجرد موظفين يؤدون أعمالهم وفقاً لتوجهات السلطان ورغباته ويتنافسون للتقرب منه ونيل مودته. كما ساءت أخلاق الكثير من العاملين في مجال التعليم بسبب من دخل المهنة ممن يرى الجاه ويطلب الدنيا وقد سجل لنا القفطي(١٦٨) ملاحظاته حول أحد أساتذة العصر وهو تاج الدين البلطي (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٢م) الذي انتخب لتدريس مادتي النحو والعروض في جامع عمرو بن العاص في مدينة الفسطاط، حيث يقول: (رأيته وهو بمصر يفيد الطلبة علمي النحو والعروض فأنه كان بهما قيّما ولم أسمع أحداً يذكر صيانته وكان متهم الخلوة لا يرده ملام عن رشف المُدام ولا يسمع الكلام في ذم الغلام، ولم يزل عزباً قذر الهيئة، خشن الملبوس، مبدد الأطراف، في تصرفهما يدل على نقص مروءته).

أما عبد المنعم بن صالح القرشي الاسكندري، النحوي، المتفنن (ت٦٣٣هـ/١٢٣٥م) فقد كان يوصف بأنه علامة الديار المصرية أدباً ونحواً، وشيخ مجونها لعباً ولهواً(١٦٩). وفضلاً عن ذلك فقد برزت طائفة من المدرسين، خرجت عن آداب التعليم المألوفة فراحوا يتباهون بكثرة المتمردين عليهم من الطلبة يكرهون بذلك قصد مدرس آخر، بل ذهب الأمر الى ما هو أبعد حيث بدأ بعض المدرسين بالتردد على منازل طلبتهم لغرض التدريس، وقد حمل النووي على تلك الفئات بشدة، واصفاً اياها بالجهلة وفاسدي النوايا(١٧٠).

وأضاف فتح مصر عاملاً جديداً أسهم في توجيه النشاط الفكري، فبعد تمكنه من انهاء الخلافة الفاطمية، تمكن صلاح الدين من اخضاع كافة مؤسسات التعليم لنظام موحد يستند على مبادئ المذاهب الأربعة، فأنشأ مكاتب للأطفال خصصت لتعليم أبناء الفقراء والأيتام، كما أنشأ ثلاثة مدارس للفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية كما رتب العديد من الأساتذة للتدريس في المساجد المعروفة في مدن القاهرة والفسطاط القاء مرتبات شهرية كان تدفع لهم من بيت المال وقد خضعت جميع تلك المؤسسات للأشراف السلطاني المباشر(١٧١).

ويبدو ان الآثار التي تركها الفاطميون في مصر والشام كانت تقتضي مزيداً من التركيز على توجيه التعليم من أجل نصرة المذاهب الأربعة، إذ يذكر ابن جبير(١٧٢) ان اعداد الشيعة في تلك البلاد كانت كبيرة وان البلاد كانت عامرة بمذهبهم.

وأخيراً فقد كان لحروب الجهاد التي خاضها الايوبيون ضد الصليبين، أثر مهم في تعزيز ذلك الاتجاه حيث أصبح التعليم لوناً مهماً من ألوان التوجيه المعنوي الذي يثير في الأمة روح التضحية والجهاد وذلك ما توفره علوم الدين وآثار السلف المجاهد أكثر من الخوض في مسائل العقل وما ينسحب عليها من تعدد الآراء والخلافات. وقد وصف قاضي القضاة بهاء الدين بن شداد ذلك الاتجاه لدى صلاح الدين بقوله: (وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب اليه يحثه على الجهاد، أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد وقد أُلف له كتب عدة في الجهاد، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه، وكل حديث ورد فيه وشرحت غريبها، وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل علي)(١٧٣).

ولم يقتصر ذلك المنهج على طلبة المراحل المتقدمة الذين كانوا يتلقون دراستهم في المدارس والمساجد فحسب، بل عمد الأيوبيون الى تعميم تلك الفكرة على مكاتب الأطفال، فكان ديوان الحماسة لأبي تمام أحد أهم الكتب التي أُعتُمِدَتْ في منهج تعليم الصبيان(١٧٤). ونتيجة لذلك فقد كانت تلك الظروف فرصة مناسبة لجعل الفقهاء والمحدثين والمتصوفة والوعاظ أكثر من غيرهم ملائمة لتوجيه التعليم بما يخدم الهدف الأساس وهو مواجهة الخطر الصليبي على حساب العلماء الذين يشك في تعاطيهم للفلسفة وعلوم

الأوائل والذين أُبعدوا عن دائرة المشاركة الحقيقية في الحياة العلمية في مصر، بل لقي البعض منهم مصرعه على أيدي الأيوبيين كما هو الحال بالنسبة لشهاب الدين السهروردي الذي أعدمه الملك المعظم غازي نجل صلاح الدين بناء على أوامر والده(١٧٥).

بيد أن ذلك المنهج لم يتغير أو يخضع لأي تعديلات خاصة مع زوال الظروف التي عاشتها الدولة الأيوبية، بل على العكس فقد تحوَّلَ الى تقليد تفرضه اتجاهات المقلدين وتعززه سلطة الحاكمين حيث بيت دراسة علوم الأوائل من المحظورات على عامة الدارسين في مصر وبلاد الشام على حدٍ سواء وتعرض العلماء الذين خاضوا في تلك العلوم الى نكبات، فقد تعرض سيف الدين الآمدي الى محنة كادت تودي بحياته بعد أن اتهم بتعاطي علوم الأوائل، إلاّ أن هروبه المفاجئ من مصر حال دون ذلك(١٧٦). وكذا الحال بالنسبة للحافظ تقي الدين المقدسي الذي تقدم الحديث عن تعرضه لمحنة مشابهة، إلاّ أن تدخلّ الصاحب صفي الدين بن شكر وزير الملك العادل وبعض العلماء حال دون ذلك(١٧٧).

وفي الوقت الذي كان فيه تعيين الملك الصالح أيوب لأفضل الدين الخونجي قاضياً للديار المصرية خلفاً للشيخ عز الدين بن عبد السلام، يمثل نوعاً من سياسة التسامح التي حاولت السلطنة اتباعها مع العلماء الذين يتعاطون علوم الأوائل، فان ذلك العمل لم يحظَ بتأييد الكثير من العلماء الذين منعهم حزم السلطان وشدته من المجاهرة بآرائهم، وبالرغم من المكانة العلمية الرفيعة للخونجي واستمرت تلك النظرة عقوداً من الزمن، فالسيوطي(١٧٨) لا يراه جديراً بالمنصب لشدة اشتهاره بالفلسفة والعلوم العقلية، ويتضح ذلك الموقف بجلاء من خلال ترجمته للخونجي حيث يقول: (وُليَّ قضاء الديار المصرية بعد عزل الشيخ عز الدين بن عبد السلام، قُلت فاعتبروا يا أولي الأبصار يُعزل شيخ الإسلام وأمام الأئمة شرقاً وغرباً ويولى عوضه رجل فلسفي. ما زال الدهر يأتي بالعجائب.) ولم يتطرق الى ذكر حينما ذكر من كان بمصر من الفقهاء الشافعية(١٧٩) بل تعرض الى ذكره في معرض حديثه عمن كان بمصر من ارباب المعقول وعلوم الأوائل والحكماء والأطباء والمنجمين(١٨٠).

ومهما يكن من أمر الجمود الذي اكتنف واقع النشاط العلمي في مصر في تلك الحقبة، فانه لم يكن في حقيقة الأمر سوى صورة مصغرة لواقع النشاط العلمي في مختلف أرجاء العالم الإسلامي والذي اتسم هو الآخر بضيق مفهوم المنهج العلمي واقتصاره على الدراسات الدينية، ويتضح ذلك من خلال المنهج الدراسي الذي وضعه الإمام أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ/١١٠٧م) والذي صنف فيه العلوم حسب أهميتها الى اربعة مراتب، الأولى كانت للعلوم الدينية، والثانية لعلوم اللغة العربية، فيما صُنفت علوم فروض الكفاية كالطب والحساب والصناعات المختلفة في المرتبة الثالثة.

أما العلوم الثقافية كالتاريخ والأدب والشعر الذي لا سخف فيه، فقد احتلت المرتبة الرابعة والأخيرة. وقد أطلق على تلك العلوم بمراتبها الأربعة، تسمية العلوم المحمودة(١٨١). أما العلوم المذمومة – من وجهة نظره – فهي علم السحر والشعوذة والطلاسم وبعض العلوم الفلسفية التي تشمل الرياضيات كالهندسة والحساب وعلم الهيئة وعلوم المنطق والألهيات والطبيعيات والسياسيات والخلقيات وتلك العلوم –على حد تعبيره- لا صلة لها مطلقاً بالدين وقد تلحق دراستها بعض الضرر بدارسها الذي قد يتأثر بدقة براهينها ويتعجب من حقائقها فيكون سبباً في اعجابه بالفلاسفة وبنظرياتهم المختلفة لذا فقد رأى أن تقتصر دراستها على فئة معينة من الطلبة وأن يُمنع الناس من دراستها صيانةً لهم من الزلل (كما يُصان الصبي من شاطئ النهر خيفة الوقوع في النهر وكما يُصان حديث العهد بالإسلام من مخالطة الكفار)(١٨٢).

أما الزرنوجي فقد اقترح منهجاً تعليمياً ينقسم الى قسمين: الأول اجباري يتضمن العبادات والمعاملات والأخلاق، أما القسم الثاني فهو اختياري تتحدد أبعاده في ضوء صلته بالدين كتعلم الطب باعتباره سبباً من الأسباب، وتعلم الفلك من أجل التعرف على أوقات الصلاة(١٨٣).

واعتماداً على ذلك المنهج خَلُصَ بعض الباحثين الغربيين الى رأي مفاده أن الجمود والتقليد كان سمة لجميع المجتمعات الإسلامية ولمختلف العصور حينما قرر أن الدافع الحقيقي لنشأة المدارس الإسلامية هو خدمة العلوم الدينية وإنها إذا كانت قد أدخلت علوماً أخرى كالمنطق والحساب،

فإنما أرادت بالمنطق الدفاع عن الدين وبالحساب تنظيم أوقات الصلاة(١٨٤).

وإذا انتقلنا الى بلاد الشام فان الحال لا يختلف عما هو عليه في بغداد، فقد اهتم الزنكيون بدراسة العلوم الدينية دون السماح بدراسة علوماً أخرى(١٨٥). وعندما تولى الأيوبيون الحكم هناك أصدروا أوامرهم الى المدارس كافة بأن يقتصر التدريس فيها على الفقه والحديث والتفسير وإن من يُدرس سواها يتعرض للنفي(١٨٦). وتحت تأثير السياسة ذاتها كان كبار علماء الشام يفتون بتحريم دراسة الفلسفة(١٨٧).

ولم يكن واقع التعليم في المغرب الإسلامي أفضل حالاً منه في العراق والشام، فالقاضي عياض يقدم انموذجاً للمنهج التعليمي الواجب اتباعه – حسب رأيه- عندما استشهد برأي أحد علماء مدينة الشاش الذي قال:

كل العلوم سوى القرآن زندقةٌ إلاّ الحديث و إلاّ الفقه في الدين

والعلم متبعٌ ما كان حدثنا وما سوى ذلك وسواس الشياطين(١٨٨)

وقد ترتب على ذلك المفهوم الضيق لمناهج التعليم، اضطراب كبير في التوازن بين العلوم الدينية من جهة والعلوم الطبيعية والفلسفة والمنطق من جهة أخرى فقد اقتصر التدريس في المدارس القائمة وقتذاك على علوم الدين واللغة، أما بقية العلوم فقد كانت النظرة اليها تخالطها الريبة والشك وتعرض الكثير من العلماء العاملين في ذلك المجال الى التضييق والملاحقة(١٨٩).

أما النتيجة الأخرى التي ترتبت على ضيق مفهوم مناهج التعليم، فتمثلت بشيوع ظاهرة الشروح والمختصرات حيث اقتصر التعليم في المدارس والمساجد على مجاميع معينة من الكتب يدور العقل في فلكها، ولا يتجاوزها الى غيرها، فانحسرت جهودهم في الحفظ والقراءة فحسب وتكرار أقوال السابقين دون تجديد أو اضافة. وقد أشار ابن خلدون الى عيوب تلك الطريقة بقوله: ((ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والإنحاء بالعلوم يولعون ويدونون منها برنامجاً مختصراً في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها بإختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن...وربما عمدوا الى كتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريباً للحفظ كما فعل ابن الحاجب في الفقه

وأصول الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم.))(١٩٠)

وقد تنبه بعض المهتمين بشؤون التعليم في تلك الحقبة الى قصور تلك المختصرات عن ايضاح الحقائق العلمية التي تنطوي عليها فحاولوا استدراك جوانب الخلل بتلك الطريقة من طريقة أخرى أشد قصوراً فقد عمدوا الى شرح ملخصاتهم وكتابة الحواشي على ما اختصروه ولذلك فقد ازدحم الكتاب الواحد بجملة من الشروح والتعليقات حتى غدا نهاية العصر الأيوبي والحقبة التالية له، مكوناً من متنٍ عليه شرح وعلى الشرح حاشية وعلى الحاشية تقرير، وترتب على ذلك أنّ بدأ فكر الطالب يدور حول ذلك الكتاب ثم لا يخرج منه إلا بالنزر اليسير(١٩١).

المصادر

أولاً. المصادر الأولية

(١) الأدفوي، كمال الدين أبو الفضل جعفر ثعلب بن جعفر الثعلبي الشافعي، (ت٧٤٨هـ/١٣٥٠م)، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعيد محمد حسن (القاهرة: مطبعة الدار المصرية، ١٩٦٦م).

(٢) الاسنوي، جمال الدين عبد الرحيم بن الحسين، طبقات الشافعية، (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م)، طبقات الشافعية، تحقيق عبد الله الجبوري (بغداد: مط الارشاد، ١٩٧١م).

(٣) إبن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ستة عشر جزءاً، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٦م).

(٤) ابن جبير، أبو الحسين محمد بن جبير الكناني (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، ط١، (بيروت: دار التراث، ١٩٦٨م).

(٥) ابن الجزري شمس الدين ابو الخير محمد بن محمد، (ت ٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره ج برجستراسر، جزءان، ط١، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٣٢م).

(٦) ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري (ت ٨٣٧هـ/١٤٣٣م)، المدخل، (أربعة أجزاء، القاهرة: المطبعة المصرية بالأزهر، ١٩٢٩م).
(٧) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للطباعة والنشر، ١٩٧١م).
(٨) ابن خلكان، شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ستة مجلدات، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨م).
(٩) الداودي، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد (ت٩٤٥هـ/١٥٣٨م)، طبقات المفسرين، تحقيق علي محمد عمر، جزءان (القاهرة: مكتبة، وهبة، ١٩٧٢م).
(١٠) الدلجي، شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٢٨هـ/١٤٢٤م)، الفلاكة والمفلكون، (النجف الأشرف: مطبعة الآداب، ١٣٨٥هـ).
(١١) الذهبي، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، تذكرة الحفاظ، أربعة أجزاء، ط١، (بيروت:دار التراث العربي، بلات).
(١٢) _____، سير اعلام النبلاء، تحقيق محمد بن عبادي بن عبد الحليم، ١٥ جزءاً، (القاهرة: مكتبة الصفا، ٢٠٠٣م).
(١٣) ابن رجب، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي، (ت٧٩٥هـ/١٢٩٥م)، الذيل على طبقات الحنابلة، وقف على طبعه وتصحيحه محمد حامد الفقي، جزءان، (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٣م).
(١٤) الزرنوجي، برهان الدين (ت ٥٩١هـ/١١٩٣م)، تعليم المتعلم طريق التعلم، (القاهرة: ١٩٤٨).
(١٥) السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الأنصاري، (ت٧٧١هـ/١٣٧٠م)، طبقات الشافعية الكبرى، ٦ أجزاء، ط١ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٩٠٦م).
(١٦) _____، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق: محمد علي النجار وأبو زيد شلبي ومحمد ابو العيون، (القاهرة: دار الكتاب العربي، بلا ت).
(١٧) ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، المغرب في حُلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ط٣، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤م).
(١٨) السلفي، صدر الدين ابو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد الأصفهاني، (ت ٥٧٦هـ/١١٨٠م)، معجم السفر، تحقيق بهيجة الحسني، (بغداد، دار الحرية للطباعة والنشر، ١٩٧٨م).

(١٩) السلامي، أبو المعالي محمد بن رافع، (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)،تاريخ علماء بغداد المسمى المنتخب المختار،صححه وعلق حواشيه عباس العزاوي، ط٢،(بيروت:الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٠م).
(٢٠) السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن أبي بكر، (ت٥٦٢هـ/ ١٢٤٧م)، أدب الاملاء والاستملاء (ليدن، ١٩٥٢م).
(٢١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمود ابو الفضل ابراهيم، جزءان، (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٤م).
(٢٢) _____، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٧هـ).
(٢٣) _____، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، (القاهرة: مطبعة الموسوعات، بلا ت).
(٢٤) _____، المزهّر في علوم اللغة، جزءان، (القاهرة – ١٣٢٥ هـ).
(٢٥) _____، نظم العقيان، تحقيق ونشر فيليب حتي، (نيويورك: المطبعة السورية الأمريكية، ١٩٢٧م).
(٢٦) أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي، (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعرف بذيل الروضتين، نشر باعتناء عزت العطار الحسني، ط١، (بلا مط، ١٩٤٧م).
(٢٧) _____، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ط١ (بيروت: دار الجبل، بلا ت).
(٢٨) ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٥م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، (القاهرة: الدار الوطنية للطباعة والنشر والترجمة، ١٩٦٤م).
(٢٩) الشهرزوري، شمس الدين محمد بن محمود (ت ٦٨٧هـ/١٢٨٨م)، نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء والفلاسفة، تحقيق وتصحيح ونشر خورشيد أحمد، جزءان، (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٦).
(٣٠) الشيزري، عبد الرحمن بن نصر، (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني (بيروت: بلا مط، ١٩٦٩).
(٣١) الصفدي، صلاح الدين ابو الصفا خليل بن أيبك بن عبد الله (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، نكت الهميان في نكت العميان، تحقيق أحمد زكي باشا (القاهرة: المطبعة الجمالية، ١٩١١م).
(٣٢) _____، الوافي بالوفيات: الأجزاء الأربعة الأولى تحقيق هلموت ريتر (فيسبادن: دار فرانز شتاينر، ١٩٦١م).

(٣٣) ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الدمشقي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٩م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط٢، ثمانية أجزاء (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، بلات).
(٣٤) الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد، عنوان الدراية فيمن عُرف من العُلماء في المائة السابعة ببجايه، تحقيق رابح بونار، الجزائر، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٠م).
(٣٥) الغزالي، ابو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ/١١١١م)، إحياء علوم الدين، (القاهرة، ١٣٠٢هـ).
(٣٦) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م)، القاموس المحيط، ط١ (القاهرة: المطبعة الحسينية، بلا ت)
(٣٧) القفطي، علي بن يوسف بن ابراهيم، (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، إخبار الحكماء بأخبار الحكماء، ط٣ (بيروت: دار الآثار للطباعة والنشر، بلا ت).
(٣٨) _____، إنباه الرواة على أبناء النحاة، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ٤ أجزاء (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠-١٩٥٥م).
(٣٩) القلقشندي، ابو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، (القاهرة: مطبعة كوستا توماس، ١٩٦٣م).
(٤٠) الكتبي، محمد بن أحمد بن شاكر، (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، فوات الوفيات، تحقيق احسان عباس، أربعة أجزاء (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٤م).
(٤١) ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، وقف على طبعه وتصحيحه محمد بيومي وآخرون، ١٤ جزءاً (المنصورة: مكتبة الايمان، بلا ت).
(٤٢) المراكشي، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي (ت٧٠٣هـ/١٣٠٣م)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، الجزء السادس، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٥م).
(٤٣) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ستة أجزاء، ط٢ (القاهرة: دار الحكمة للطباعة والنشر، بلات).
(٤٤) _____، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار أو ما يعرف بالخطط المقريزية (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٩٢٤م).
(٤٥) المنذري، زكي الدين ابو محمد عبد العظيم بن عبد القوي، (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، ستة أجزاء، المجلدين الأول والثاني (النجف الأشرف، مطبعة الآداب، ١٩٦٩م)، المجلدين الثالث والرابع (النجف الأشرف،

مطبعة الآداب، ١٩٧١م)، المجلدين الخامس والسادس (القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ١٩٧٥-١٩٧٦).
(٤٦) النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت٩٧٨هـ/١٥٧٠م)، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، جزءان، ط١ (دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٤٨م).
(٤٧) النووي، محي الدين ابو زكريا يحيى بن شرف (ت٦٧٦ هـ/١٢٧٨م)، التبيان في حملة آداب القرآن (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٠م).
(٤٨) الهيثمي، شهاب الدين بن أحمد بن حجر (ت٩٧٣هـ/١٥٦٥م)، دُر الغمامة في ذر الطيلسان والعذبة والعمامة، (القاهرة، بلا ت).
(٤٩) ابن واصل، جمال الدين ابو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله المازني الحموي (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، خمسة أجزاء: الجزء الأول، تحقيق: جمال الدين الشيال (القاهرة: مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م).
(٥٠) ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الرحمن الرومي، (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب الى معرفة الأديب، نشر بعناية أحمد فريد الرفاعي، عشرين جزءاً (بيروت: دار احياء التراث العربي، بلا ت).

ثانياً. المصادر الثانوية

(١) بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر وبلاد الشام (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٢م).
(٢) الديوجي، سعيد، التربية والتعليم في الاسلام (الموصل: مكتب التراث العربي، ١٩٨٢م).
(٣) بن شريفة، محمد حول التسامح الديني وابن ميمون والموحدين، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، السفر الثاني عشر (الرباط ، بلا ت).
(٤) شلبي، أحمد، تاريخ التربية الاسلامية، ط٣ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦).
(٥) غنيمة، محمد عبد الرحيم، تاريخ الجامعات الإسلامية (تطوان: دار الطباعة الغربية ، ١٩٥٣م).
(٦) محمد أحمد، محمد حلمي مصر والشام والصليبيون ، ط٢ ، (القاهرة: بلا مط، ١٩٨٢).
(٧) النقيب، مرتضى حسن، عز الدين بن عبد السلام ومواقفه من السياسة الأيوبية والمملوكية (القسم الثاني) ، مجلة كلية الآداب ، ع٥٥ ، (بغداد ، ٢٠٠١م).
(8) Bayard Dodge, Muslim Education in Medieval Times (Washington, D. C. O: 1961).

الهوامش

(١) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، (القاهرة: مطبعة الموسوعات، بلا ت)، ج٢، ص١٢٧.

(٢) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار أو ما يعرف بالخطط المقريزية (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٩٢٤م)، ج٢، ص٣٦٥.

(٣) تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الأنصاري السبكي، (ت٧٧١هـ/١٣٧٠م)، طبقات الشافعية الكبرى، ٦ أجزاء، ط١ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٩٠٦م)، ج٥، ص٢٦.

(٤) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٦٤.

(٥) المقريزي، الخطط،ج٢، ص٣٨٠.

(٦) عبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الدمشقي ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٩م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط٢، ثمانية أجزاء (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، بلا ت)، ج٥، ص١٨١.

(٧) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص١٠٧؛ وأنظر كذلك: أحمد بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر وبلاد الشام (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٢م)، ص٧٦.

(٨) صلاح الدين ابو الصفا خليل بن أيبك بن عبد الله ابن أيبك الصفدي، (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، الوافي بالوفيات: الأجزاء الأربعة الأولى تحقيق هلموت ريتر (فيسبادن: دار فرانز شتاينر، ١٩٦١م)، ج١، ص٢٨٨.
(٩) جمال الدين عبد الرحيم بن الحسين الاسنوي، (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م)، طبقات الشافعية، تحقيق عبد الله الجبوري (بغداد: مط الارشاد، ١٩٧١م)، ج٢، ص٤٥٣.
(١٠) السبكي، طبقات الشافعية، ج٥، صص٨١-٨٤.
(١١) زكي الدين ابو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، ستة أجزاء، المجلدين الأول والثاني (النجف الأشرف، مطبعة الآداب، ١٩٦٩م)، المجلدين الثالث والرابع (النجف الأشرف، مطبعة الآداب، ١٩٧١م)، المجلدين الخامس والسادس (القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ١٩٧٥-١٩٧٦)، ج٢، ص٣٨٣.
(١٢) المنذري، التكملة، ج٤، ص٣٣٧؛ محمد بن أحمد بن شاكر الكتبي، (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، فوات الوفيات، تحقيق احسان عباس، أربعة أجزاء (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٤م)، ج٣، ص٢٧.
(١٣) المصدر نفسه، ج٦، ص٣٠٠-٣٠١.
(١٤) المصدر نفسه، ج٦، ص٣٤.
(١٥) شمس الدين ابو الخير محمد بن محمد ابن الجزري، (ت ٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره ج برجستراسر، جزءان، ط١، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٣٢م)، ج١، ص٤٠١.
(١٦) المنذري، التكملة، ج٢، ص٣٧٧.
(١٧) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٨٨.
(١٨) كمال الدين، أبو الفضل جعفر ثعلب بن جعفر الثعلبي الشافعي الأدفوي، (ت ٧٤٨هـ/١٣٥٠م)، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعيد محمد حسن (القاهرة: مطبعة الدار المصرية، ١٩٦٦م)، ص٥٥٦.
(١٩) الاسنوي، طبقات الشافعية، ج٢، ص١٧٦.
(٢٠) شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ستة مجلدات، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨م)، ج٣، ص٢٣٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٥، ص١٢.
(٢١) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٦٢-٣٦٣؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٢٢٩.

(٢٢) علي بن يوسف بن ابراهيم القفطي، (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، إنباه الرواة على أبناء النحاة، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ٤ أجزاء (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠-١٩٥٥م) ، ج١، ص٢٣٩.
(٢٣) ابو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، (القاهرة: مطبعة كوستا توماس، ١٩٦٣م)، ج٥، ص٤٦٤.
(٢٤) معيد النعم، ص١٠٨.
(٢٥) أحمد شلبي، تاريخ التربية الاسلامية، ط٣ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦)، ص٢٥٦.
(٢٦) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٦٣.
(٢٧) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٦٣؛ وانظر كذلك: شلبي، تاريخ التربية، ص٢٥٦.
(٢٨) جمال الدين ابو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله المازني الحموي ابن واصل (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، خمسة أجزاء: الجزء الأول، تحقيق: جمال الدين الشيال (القاهرة: مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م)، ج١، ص٩٩.
(٢٩) شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، تذكرة الحفاظ، أربعة أجزاء، ط١، (بيروت:دار التراث العربي، بلات)، ج٤، ص١٤٣٨.
(٣٠) الأدفوي، الطالع السعيد، ص٢٢١-٢٢٢.
(٣١) الأسنوي، طبقات الشافعية، ج١، ص١٥٧.
(٣٢) المنذري، التكملة، ج٤، ص٢١١.
(٣٣) المنذري، التكملة، ج٦، ص٢٠٣،؛ الأسنوي، طبقات الشافعية، ج٢، ص٣٥٧.
(٣٤) الأسنوي، طبقات الشافعية، ج١، ص١٣٨.
(٣٥) المصدر نفسه، ج٢، ص١٨٧.
(٣٦) طبقات الشافعية، ج٥، ص٢١.
(٣٧) معيد النعم، ص١٠٨.
(٣٨) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، نظم العقيان، تحقيق ونشر فيليب حتي، (نيويورك: المطبعة السورية الأمريكية، ١٩٢٧م) ص١١٢.
(٣٩) التكملة، ج٤، ص٢٩٥.
(٤٠) المصدر نفسه، ج٤، ص١٥٤.
(٤١) إنباه الرواة، ج١، ص٢١٠.
(٤٢) التكملة، ج٦، ص١٥٨.

(٤٣) المصدر نفسه.
(٤٤) شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي، (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ط١ (بيروت: دار الجبل، بلا ت)، ج١، ص٢٦٧.
(٤٥) المصدر نفسه.
(٤٦) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٤٣٨.
(٤٧) محمد عبد الرحيم غنيمة، تاريخ الجامعات الإسلامية (تطوان: دار الطباعة الغربية، ١٩٥٣م)، ص٢٣٠.
(٤٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٣٨؛ وانظر كذلك: غنيمة، تاريخ الجامعات، ص٢٣١.
(٤٩) ابن الجزري، غاية النهاية، ج١، ص٥٨٣.
(٥٠) أبو المعالي محمد بن رافع السلامي، (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، تاريخ علماء بغداد المسمى المنتخب المختار، صححه وعلق حواشيه عباس العزاوي، ط٢، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٠م)، ص١٦٢.
(٥١) القفطي، انباه الرواة، ج٢، ص١١١.
(٥٢) الذهبي، معرفة القراء الكبار، ص٥٢٥؛ ابن الجزري، غاية النهاية، ج١، ص٥٤٥.
(٥٣) غنيمة، تاريخ الجامعات، ص٢٣٢.
(٥٤) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، المزهّر في علوم اللغة، جزءان، (القاهرة – ١٣٢٥ هـ) ، ج٢، ص١٩٨.
(٥٥) أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عُرف من العُلماء في المائة السابعة ببجايه، تحقيق رابح بونار، الجزائر، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٠م)، ص٤٥.
(٥٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، ص١٢، ص٣٩؛ وانظر كذلك: غنيمة، تاريخ ، ص٢٣٢-٢٣٣.
(٥٧) صدر الدين ابو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد الأصفهاني، (ت ٥٧٦هـ/١١٨٠م)، معجم السفر، تحقيق بهيجة الحسني، (بغداد، دار الحرية للطباعة والنشر، ١٩٧٨م)، ج١، ص٤٣.
(٥٨) المصدر نفسه، ج١، ص٤٤.
(٥٩) المصدر نفسه.
(٦٠) ابن الجزري، غاية النهاية، ج١، ص١٠٢.
(٦١) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٤، ص٢٥٥.

(٦٢) زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي ابن رجب، (ت٧٩٥هـ/١٢٩٥م)، الذيل على طبقات الحنابلة، وقف على طبعه وتصحيحه محمد حامد الفقي، جزءان، (القاهرة: مطبعة السنة المهدية، ١٩٥٣م)، ج٢، ص١٠.
(٦٣) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٥، ص٤٦٤.
(٦٤) المصدر نفسه، ج٦، ص٦١-٦٣.
(٦٥) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١.
(٦٦) السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٧هـ)، ص١١٦.
(٦٧) شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الرحمن الرومي الحموي، (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم الأدباء المعروف بإرشاد الأريب الى معرفة الأديب، نشر بعناية أحمد فريد الرفاعي، عشرين جزءاً (بيروت: دار احياء التراث العربي، بلا ت)، جـ١٦، ص٦٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ١، ص٨٧؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، جـ٤، ص١٢٩٨؛ السيوطي، حسن المحاضرة، جـ١، ص١٦٥.
(٦٨) ابن الجزري، غاية النهاية، ج٢، ص٤.
(٦٩) المصدر نفسه، ج١، ص٣٩٣.
(٧٠) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢، ص١٠.
(٧١) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٥، ص٢٢.
(٧٢) السبكي، معيد النعم، ص١٠.
(٧٣) القفطي، انباه الرواة، ج١، ص٢١٠؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٣.
(٧٤) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٦٥.
(٧٥) المصدر نفسه، ص٣١١.
(٧٦) ياقوت، معجم الادباء، ج١١، ص١.
(٧٧) انباه الرواة، ج٢، ص٢٣.
(٧٨) شلبي، تاريخ التربية الاسلامية، ص٢٤٦.
(٧٩) المقريزي، الخطط، ص٣٦٧.
(٨٠) المنذري، التكملة، ج٥، ص٢١٣.
(٨١) السبكي، طبقات الشافعية، ج٥، ص٢١.
(٨٢) المنذري، التكملة، ج٤، ص١٢٥.
(٨٣) القفطي، انباه الرواة، ج٣، ص٣٣٤.
(٨٤) شهاب الدين أحمد بن علي الدلجي، (ت ٨٢٨هـ/١٤٢٤م)، الفلاكة والمفلكون، (النجف الأشرف: مطبعة الآداب، ١٣٨٥هـ)، صص١١٨-١١٩.
(٨٥) المصدر السابق، ص١٢١؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج٢، ص٢٣٦.

(٨٦) شهاب الدين بن أحمد بن حجر الهيثمي (ت٩٧٣هـ/١٥٦٥م)، دُر الغمامة في ذر الطيلسان والعذبة والعمامة، (القاهرة، بلا ت)، ص٧.
(٨٧) المصدر نفسه، ص٨.
(٨٨) صبح الأعشى، ج٤، ص٤٣.
(٨٩) الطيلسان قطعة قماش خضراء اللون من أردية العجم إلا أنه مع تقادم الوقت اختص به كبار العلماء، توضع فوق العمامة وتتدلى على الكتفين وبعضهم من يرسلها على ظهره كما الحال بالنسبة لكبار علماء مصر، فما يُعرف عن القاضي الفاضل أنه كان له حدبة يُخفيها بالطيلسان. انظر: الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ/١٤١٤م)، القاموس المحيط، ط١ (القاهرة: المطبعة الحسينية، بلا ت)، مادة طلس؛ المقريزي، الخطط،ج٢، ص٣٦٧.
(٩٠) معجم الادباء، ج١٢، ص١٤٣؛ وانظر ايضاً: سعيد الديوجي، التربية والتعليم في الاسلام (الموصل: مكتب التراث العربي، ١٩٨٢م)، ص١٠٤.
(٩١) أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري ابن الحاج (ت ٨٣٧هـ/١٤٣٣م)، المدخل، (أربعة أجزاء، القاهرة: المطبعة المصرية بالأزهر، ١٩٢٩م)، ج١،ص١٤٤.
(٩٢) دُر الغمامة، ص٣٩ وما بعدها.
(٩٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٤.
(٩٤) المصدر نفسه.
(٩٥) المصدر نفسه، ج٤، ص٤١.
(٩٦) المصدر نفسه، ج٤، صص٤١-٤٢؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٦٧.
(٩٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص١٦٦.
(٩٨) شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي، (ت٩٤٥هـ/١٥٣٨م)، طبقات المفسرين، تحقيق علي محمد عمر، جزءان (القاهرة: مكتبة، وهبة، ١٩٧٢م)، ج٢، ص٣١٤.
(٩٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٢.
(١٠٠) أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، المغرب في حُلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ط٣، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤م)، ج١، ص٥-٦.
(١٠١) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٧٣.
(١٠٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٣٧٦.
(١٠٣) ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج٢، ص١٢.
(١٠٤) السبكي، طبقات الشافعية، ج٥، ص٢٧.
(١٠٥) السبكي، طبقات الشافعية، ج٥، ص٢٧.

(١٠٦) وقعت حادثة الطبلخانة في وقت غير محدد من عام ٦٤٠هـ، أي في السنة الثانية من اقامته في مصر وملخصها إن إبن عبد السلام كان قد اختلف مع الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ الجويني استاذ دار الملك الصالح حول بنائه لطبلخانه ملاصقة لأحد مساجد مدينة الفسطاط، حيث احتج ابن عبد السلام بشدة على ضرب الطبلخانة بجوار المسجد، ثم حكم بعد ذلك بهدم المبنى بصورة نهائية، لمزيد من التفاصيل انظر: ابن واصل، مفرج الكروب؛ ج٥، ص٣٤٩-٣٥٢؛ إبن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ستة عشر جزءاً، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٦م)، ج٦، ص٣٥٢-٣٥٣؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ستة أجزاء، ط٢ (القاهرة:دار الحكمة للطباعة والنشر، بلا ت)، ج١، ق٢، ص٣١٢؛ وانظر كذلك: مرتضى حسن النقيب، عز الدين بن عبد السلام ومواقفه من السياسة الأيوبية والمملوكية (القسم الثاني)، مجلة كلية الآداب، ع٥٥، (بغداد، ٢٠٠١م)، ص١٣-١٥.

(١٠٧) السبكي، طبقات الشافعية، ج٥، ص٨١.

(١٠٨) شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي المعروف بأبي شامة، (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعرف بذيل الروضتين، نشر باعتناء عزت العطار الحسني، ط١، (بلا مط، ١٩٤٧م)، ص١٩.

(١٠٩) ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج٢، ص٢٥.

(١١٠) السبكي، طبقات الشافعية، ج٥، ص٢٦.

(١١١) ذكرت بعض المصادر التاريخية إن ابن بري (كان يلبس الملابس الفاخرة، ويأخذ في كُمه العنب والبيض فيسقط على رجله ماء العنب فيرفع رأسه ويقول: العجب: إنما تمطر مع الصحو). ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٢، ص٢٧٣. وهي على ما يبدو لم تكن أكثر من اشاعة استهدفت الحط من قيمة ابن بري ومكانته العلمية اذ ليس من المعقول أن تصدر تلك التصرفات عن شخص شهد له المؤرخون بفرط الذكاء وغزارة العقل ويقظة الفكر وهو ما دفع كبار رجال الدولتين الفاطمية والأيوبية الى الاستعانة به ووضع كامل ثقتهم فيه فأناطوا به مسؤولية المراقبة النحوية لكافة المراسلات التي كانت تصدر عن ديوان الانشاء في الدولتين، فضلاً عن ذلك فقد كان ملوك البيت الأيوبي يجلسون في حلقة درسه كبقية الطلبة ويتنافسون للأخذ عنه، بل ويُجهد البعض منهم نفسه بُغية الحصول على اجازته في اختصاصه. وقد تنبه القفطي وهو من المعاصرين له، لتلك الفريه وعمل جاهداً على نفيها عنه حينما قال: (ويُحكى عنه حكايات في التغفل أجلُّه عنها وعن ذكر شيء منها) ولا أدل على مكانة الرجل بين قومه، أنه لما بيعت كُتبه بعد وفاته في ذي القعدة عام ٥٨٢هـ، حضروا

الجم الغفير من الأجلاء بمصر. لمزيد من المعلومات انظر: انباه الرواة، ج٢، ص١١١.
(١١٢) إبن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج٢، ص٢٥.
(١١٣) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٣٧٧.
(١١٤) ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ج٢، ص٢٦.
(١١٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٥٥-٤٥٦؛ عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، وقف على طبعه وتصحيحه محمد بيومي وآخرون، ١٤ جزءاً (المنصورة: مكتبة الايمان، بلا ت)، ج١٣، ص١٣٥؛ الاسنوي، طبقات الشافعية،ج١، ص١٣٧.
(١١٦) ياقوت، معجم الأدباء، ج١١، ص١١٥.
(١١٧) السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمود ابو الفضل ابراهيم، جزءان، (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٤م)، ج١، ص٥٠٣.
(١١٨) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٣٧٦.
(١١٩) السبكي، طبقات الشافعية، ج٥، ص٨١.
(١٢٠) الأسنوي، طبقات الشافعية، ج٢، ص١٩٩.
(١٢١) أبو الحسين محمد بن جبير الكناني (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، ط١، (بيروت: دار التراث، ١٩٦٨م)، ص١٥.
(١٢٢) شلبي، تاريخ التربية الاسلامية، ص٢٩٤-٢٩٥.
(١٢٣) الرحلة، ص١٥.
(١٢٤) طبقات الشافعية، ج٥، ص١٣٣.
(١٢٥) غنيمة، تاريخ الجامعات، ص٢٧٣.
(١٢٦) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٦٤.
(١٢٧) التكملة، ج١، ص٤٠٨.
(١٢٨) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق: محمد علي النجار وأبو زيد شلبي ومحمد ابو العيون، (القاهرة: دار الكتاب العربي، بلا ت)، ص١٠٥.
(١٢٩) المصدر نفسه، ص١٠٥.
(١٣٠) المصدر نفسه، صص ١٠٥-١٠٦.
(١٣١) ابن الجزري، غاية النهاية، ج١، ص٥٨٣.
(١٣٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٢١.
(١٣٣) القفطي، انباه الرواة، ج٢، ص٨٤.
(١٣٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٧٧-٢٧٨.
(١٣٥) المنذري، التكملة،ج١، ص١٦٥-١٦٦؛ ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة، ج٢، ص٢١٥.

(١٣٦) عبد الكريم بن محمد بن أبي بكر السمعاني، (ت٥٦٢هـ/ ١٢٤٧م)، أدب الاملاء والاستملاء (ليدن، ١٩٥٢م)، صص٢٥-٢٦.
(١٣٧) المصدر نفسه، ص٢٦.
(١٣٨) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٣٠١.
(١٣٩) القفطي، انباه الرواة، ج٢، ص١٥٥؛ أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، (ت٧٠٣هـ/١٣٠٣م)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، الجزء السادس، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٥م)، ج٥، ق٢، ص٥٥٠.
(١٤٠) السبكي، طبقات الشافعية، ج٥، ص٤٠.
(١٤١) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٣.
(١٤٢) السمعاني، أدب الاملاء، ص٢؛ السبكي، معيد النعيم، ص١٠٥-١٠٧.
(١٤٣) الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، تحقيق أحمد زكي باشا (القاهرة: المطبعة الجمالية، ١٩١١م)، ص١٩٥.
(١٤٤) ابن الجزري، غاية النهاية، ج٢، ص٢١.
(١٤٥) المنذري، التكملة، ج٤، ص١٨١.
(١٤٦) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٤، صص١٢٣٦-١٤٣٩.
(١٤٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢، صص٤١٣-٤١٤؛ السبكي، طبقات الشافعية، جـ٥، صص١٠٨-١٠٩؛ ابن الجزري، غاية النهاية، جـ١، صص٥٤٥-٥٤٦.
(١٤٨) محمد حلمي محمد أحمد، مصر والشام والصليبيون، ط٢ (القاهرة: بلا مط، ١٩٨٢)، ص٢٤٧-٢٤٨.
(١٤٩) المصدر نفسه.
(١٥٠) هو الشيخ ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن ثابت، الصوفي الواعظ الشاعر الملقب بالكيزاني نسبة لصناعة الاكواز، استحدث طريقة صوفية عرفت بـ((الطريقة الكيزانية)) التي تعد أول طريقة صوفية ظهرت بمصر اواخر العصر الفاطمي، وكان له اتباع ومريدون واستمرت تعاليمه بعد وفاته بمدة طويلة، بيد أن أهم ما كان يؤخذ عليه، قوله بالتجسيم على خلاف بقية المذاهب الاسلامية، توفي في محرم عام ٥٦٢هـ/١١٦٦م. عن سيرته انظر: الذهبي، سير اعلام النبلاء، تحقيق محمد بن عبادي بن عبد الحليم، ١٥ جزءاً، (القاهرة: مكتبة الصفا، ٢٠٠٣م)، ج١٢، ص٢٥١؛ ابن تغرى بردي،النجوم الزاهرة،صص٣٦٧-٣٦٨.
(١٥١) الرحلة ، ص٧٨.
(١٥٢) المصدر نفسه، ص٩٠.
(١٥٣) المصدر نفسه، صص٥٥-٥٦.

(١٥٤) محمد بن شريفة، حول التسامح الديني وابن ميمون والموحدين، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، السفر الثاني عشر (الرباط، بلا ت)، صص٣٣-٣٤.
(١٥٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص٦٦.
(١٥٦) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٦.
(١٥٧) هو جلال الدين أبو النجيب أو أبو الفضائل نصر بن عبد الرحمن الشيزري، عاصر صلاح الدين وأهداه كتابه (النهج السلوك في سياسة الملوك)، ولعل وضع كتابه في الحسبه تلبية لرغبة السلطان وذلك لمساعدة الدولة الايوبية في مراقبة أرباب الحرف والصنائع لما كان معروفاً عنهم ميولهم الفاطمية انظر: السيد الباز العريني، مقدمة تحقيق كتاب نهاية الرتبة للشيزري، ص٤.
(١٥٨) أصبح هذا الكتاب أساساً للمصنفات التي صنفت في المجال ذاته فيما بعد كما هو الحال بالنسبة لكتاب معالم القربة في طلب الحسبة لابن الاخوة المتوفي سنة ٧٢٩ هـ/ ١٣٣٨ م. أما كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام المتوفي في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي فيبدو أن معظم فصوله منقولة عن كتاب الشيزري، فضلاً عن اتفاقه مع كتاب الشيزري في العنوان، كما أن مقدمتمها واحدة باعتراف ابن بسام، ومن المرجح ان يكون ابن بسام قد اخذ مصنف الشيزري فأضاف اليه أبواباً عديدة مما جعلها تبلغ مائة وأربعة عشر باباً بعد أن كان كتاب الشيزري أربعين باباً فقط، فضلاً عن ذلك فأن معظم المصنفات التي تناولت وصف المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، استمدت من مصنف الشيزري، أما مباشرة أو عن طريق غير مباشر. ولعل ذلك ما حمل احد الباحثين على الاعتقاد بأن مصنف الشيزري هو الأصل لجميع ما صُنّف في الحسبة وما يتعلق بها في عموم الدولة العربية الاسلامية: للمزيد من التفاصيل انظر: ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص٣١٤-٣١٥؛ ج٤، ص١٦-١٨؛ وانظر كذلك: السيد الباز العريني، مقدمة التحقيق، ص٨.
(١٥٩) الشيزري، نهاية الرتبة، ص١٠٤. بل الأدهى من ذلك ان الشيزري يعد المرأة التي تتعلم الكتابة بمثابة الحية التي تُسقى سماً. انظر المصدر نفسه.
(١٦٠) برهان الدين الزرنوجي (ت ٥٩١هـ/١١٩٣م)، تعليم المتعلم طريق التعلم، (القاهرة: ١٩٤٨)، ص١٢.
(١٦١) المصدر نفسه، ص٤.
(١٦٢) يرى الزرنوجي إن أقوى أسباب الحفظ: المواظبة والجد وقراءة القرآن الكريم وصلاة الليل وتقليل النوم، والسواك، وشرب العسل وأكل الكندر مع السكر وأكل احدى وعشرين زبيبة حمراء كل يوم على الريق، والإكثار من أكل المصطكي، أما الأسباب الموجبة للنسيان فمن أبرزها كثرة الذنوب والمعاصي وكثرة الأحزان والهموم كذلك الانشغال الدائم وأكل المأكولات التي تزيد في افراز مادة البلغم وأكل الكزبرة والرطبة وأكل التفاح الحامض وأكل السمك وشرب الخل والنظر الى

المصلوب وقراءة لوح القبور والمرور بين قافلة الجمال، وإلقاء القمل الحي على الارض والحجامة على نقرة القفا، لمزيد من التفاصيل انظر: تعليم المتعلم، ص٧٤-٧٥.

(١٦٣) يؤكد الزرنوجي على ان طالب العلم يجب ألاّ يختار نوع العلم الذي يروم دراسته بنفسه، بل يفوض أمره الى الاستاذ فان الاستاذ قد حصل له من التجارب ما جعله أعرف بما ينبغي لكل طالب دراسته وما يليق بطبيعته، انظر: تعليم المتعلم، ص٢١.

(١٦٤) المصدر نفسه، ص١٥-١٩.

(١٦٥) السبكي، طبقات الشافعية، ج٥، ص٧٥.

(١٦٦) ياقوت، معجم الأدباء، ج٨، ص١٠٥؛ السيوطي،بغية الوعاة، ج١،صص٥٠٢-٥٠٣.

(١٦٧) القفطي، انباه الرواة، ج٢، صص٢٢-٢٣.

(١٦٨) انباه الرواة، ج٢، ص٣٤٥، كما أشار كل من ياقوت والسيوطي الى المعنى ذاته انظر: معجم الادباء، ج١١، ص١٤٣؛ بغية الوعاة، ج٢، ص١٣٥.

(١٦٩) السيوطي، بغية الوعاة، ج٢، ص١١٥.

(١٧٠) محي الدين ابو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت٦٧٦ هـ/١٢٧٨م)، التبيان في حملة آداب القرآن (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٠م)، ص١٦-٢٠.

(١٧١) ابن جبير، الرحلة ، ص٢٧.

(١٧٢) المصدر نفسه، ص٢٥٢.

(١٧٣) بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ابن شداد (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٥م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، (القاهرة: الدار الوطنية للطباعة والنشر والترجمة، ١٩٦٤م)، ص٢١.

(١٧٤) المقريزي، الخطط، جـ٢، ص٣٦٧.

(١٧٥) شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري (ت ٦٨٧هـ/١٢٨٨م)، نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء والفلاسفة، تحقيق وتصحيح ونشر خورشيد أحمد، جزءان، (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٦)، جـ١، صص١١٩-١٢٠.

(١٧٦) السبكي، طبقات الشافعية، جـ٥، صص١٢٩-١٣٠.

(١٧٧) ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، جـ٢، ص٢٦.

(١٧٨) حُسن المحاضرة، جـ١، ص٥٤١.

(١٧٩) السيوطي، حُسن المحاضرة، جـ١، ص٣٩٨، وما بعدها.

(١٨٠) المصدر نفسه، جـ١، ص٥٤١.

(١٨١) ابو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ/١١١١م)، إحياء علوم الدين، (القاهرة، ١٣٠٢هـ)، جـ١، ص٢٠.
(١٨٢) المصدر نفسه.
(١٨٣) تعليم المتعلم، صص٤-٧.
(١٨٤) Bayard Dodge, Muslim Education in Medieval Times (Washington, D. C. O: 1961), P29.
(١٨٥) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ط١ (بيروت: دار الجبل، بلا ت)، جـ١، ص١٣.
(١٨٦) عبد القادر بن محمد الدمشقي النعيمي (ت٩٧٨هـ/١٥٧٠م)، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، جزءان، ط١ (دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٤٨م)، جـ١، ص٣٩٣.
(١٨٧) المصدر نفسه، جـ١، ص٢١.
(١٨٨) غنيمة، تاريخ الجامعات، ص١٦٥.
(١٨٩) القفطي، إخبار الحكماء بأخبار الحكماء، ط٣ (بيروت: دار الآثار للطباعة والنشر، بلا ت)، ص١٥٤.
(١٩٠) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للطباعة والنشر، ١٩٧١م)، جـ١، ص٥٣.
(١٩١) غنيمة، تاريخ الجامعات، ص١٨٧-١٨٩.